**فلسفة التربية الإسلامية**

**دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربية المعاصرة**

**د. ماجد عرسان الكيلاني**

نموذج العلاقات بين الإنسان والخالق والكون والحياة والآخرة في فلسفة التربية الإسلامية

الهدف الذي تسعى إليه التربية ـ حسب فلسفة التربية الإسلامية - هو بلوغ المتعلم درجة الرقي الإنساني ـ أو درجة أحسن تقويم حسب التعبير القرآني . ويبلغ الإنسان درجة الرقي حين تتشكل علاقاته بالخالق والكون والإنسان -

والحياة والآخرة كما يلي :

العلاقة بين الخالق وبين الإنسان هي - علاقة عبودية .

العلاقة بين الإنسان وبين الكون هي - علاقة تسخير

العلاقة بين الإنسان وبين الإنسان هي - علاقة عدل وإحسان .

العلاقة بين الإنسان وبين الحياة هي - علاقة ابتلاء. العلاقة بين الإنسان وبين الآخرة هي - علاقة مسؤولية وجزاء

أولاً :

العلاقة بين الخالق والإنسان علاقة عبودية -

معنى العبودية وأهميتها :

العلاقة التي تتطلع فلسفة التربية الإسلامية إلى بنائها

بين الله وبين الإنسان المتعلم هي العبودية أو العبادة . والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفكار والأعمال والمشاعر والعواطف في حياة الأفراد

والجماعات وفي جميع الميادين الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية وغير ذلك. وأهمية هذه - العبادة - أنها العلة الرئيسية للخلق

والإيجاد : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين). ( الذاريات : ٥٦)

.

وبالعبودية طولبت جميع الأمم، - ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله ) . (سورة النحل : الآية (٣٦)

وبالعبودية جاءت جميع الرسل ((وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أن لا إله إلا أنا فاعبدون) . (سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

فقد جاء بها نوح -عليه السلام : - ((ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله )) (المؤمنون: ۲۳).

وجاء بها ابراهيم -عليه السلام-: ((وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه)). (العنكبوت: ١٦).

وجاء بها هود -عليه السلام -: ((وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله )) . (الأعراف: ٦٥ )

وجاء بها صالح عليه السلام : ((وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله )) (الأعراف : ۷۳).

وجاء بها شعيب -عليه السلام -: ((والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله )) (هود: ٨٤)

وجاء بها موسى عليه السلام ((وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله )) (البقرة: ۸۳)

وجاء بها المسيح عليه السلام: ((وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله وربكم)). (المائدة: ٧٢) .

وبها توجه محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة : ((يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم)). (البقرة: 21)

وبسببها شرعت الهجرة وترك الأوطان والديار كما قال -تعالى –((يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون)). (العنكبوت: 56).

وهناك فرق بين أن يكون الهدف من الحياة هو عبادة . وبين أن يكون الهدف هو عبادة الغرائز والشهوات . الله فلقد أثبت تاريخ الإنسان على الأرض أن الإنسان يرتقي ويتسامى ويتقدم علمياً واجتماعيا حين يعبد الله . ولكنه حين يعبد شهواته يقع ضحية الفرقة والصراع والعزلة والوحدة والاغتراب وكلها تنتهي بتحطيم الإنسان أفراداً وجماعات!

ولقد كشف الله للباحثين في ـ آيات الأنفس - جوانب مؤثرة عن دور محبة «المثل الأعلى في وجود الإنسان ورقيه وتقدمه واستمراره وممن ناقش هذا الدور عالم النفس الشهير ايرك فروم Erich Fromm - في بحثه «المحبة». ومما قاله في هذا المجال :

إن أعمق حاجة في كيان الإنسان هي حاجته للتغلب على انفصاله والخروج من سجن العزلة. وأن الفشل في تحقيق هذا الهدف يعني الجنون. والسبب أن رعب العزلة التامة لا يمكن التغلب عليه إلا بالانسحاب الكامل من العالم مع عدم الإحساس بهذا الانسحاب وهذا لا يتحقق إلا إذا اختفى العالم نفسه .

ويمضي - فروم - في استعراض الحلول التي يلجأ إليها الإنسان لمعالجة هذه العزلة وتحقيق الاتحاد فيذكر أن الإنسان يحققها في مرحلة الطفولة من خلال الاندماج مع والدته والالتصاق بها رضاعة وأمومة. ولكنه لا يلبث أن يتخطاها إلى العلاقات الجسدية التي تأخذ أشكالاً شرعية كالزواج أو أشكالاً متطرفة كالعربدة الجنسية ولكنها كلها علاقات جسدية مؤقتة ودورية من آن لآخر، ولذلك يظل الجانب النفسي في الإنسان في وحدة وعزلة مما يدفعه إلى تخطي العلاقات الجسدية إلى الأعمال العقلية كالفنون والإنتاج الفكري المبدع. ولكنها علاقة غير كاملة كذلك لأنها تبقي الإنسان مع الوجود المادي حوله ويظل الجانب النفسي في حاجة إلى تبادل الحب مع طرف دائم العطاء والتفاعل.

وهنا يتيه - فروم - فلا يهتدي لهذا الطرف الدائم العطاء الموجود خارج الوجود المادي. ويعود – فروم - للدوران في حلقة بني الإنسان. ومن الطبيعي أن يتيه فروم - لأنه لم يجد الوحي الصحيح الذي يساعده على عملية المعرفة خارج دائرة الإنسانية التي ينتهي العقل عند حدودها، فالإنسان لا يمكن أن تشبع حاجته إلى المحبة ضمن دائرة الوجود المادي خاصة، حين يتعدى الشباب يبدأ الكهولة ثم الشيخوخة حيث يبدأ التفكير في محطات حلته بعد الموت. وهنا يحس بالمجهول والعزلة القادمة ما يحيط بها من أخطار فتشتد حاجته إلى أنيس يؤنسه صاحب يسنده، ومحب ينصره ومن الطبيعي أن المحبوبات عنها في محطات الشباب ابتداء من الأم أو الزوجة تفيد في هذه المراحل ولا تستمر هنا يأتي دور الإيمان عبادة الله لتقرر أن الصاحب والأنيس في هذه المحطات هو الله وحده .

والإنسان بحاجة إلى الحرية والانعتاق من ذل استرقاق. وأسوأ أنواع الاسترقاق هي استرقاق الإنسان من غرائزه وشهواته، بل أن الرق الخارجي ـ أو الرق جتماعي - لا يحدث في حياة الإنسان إلا إذا سهل طريقة ق الداخلي - أو الرق النفسي . وفي هذه الحالة يسجن لسان في أضيق سجون الوحدة وتدمر حاجته الأولى. -حاجة المحبة- .. لذلك كان كفاح الإنسان وصراعه الاجتماعي من أجل حريته ابتداء من وجوده على الأرض واستعداده للتخلي عن الحياة مقابل هذه الحرية، وكذلك كان كفاح قادة الفكر الإنساني وأهل المثل والقيم من أجل الحرية النفسية والتسامي بالنفس والعقل.

وهذه الحرية - بمظهريها الخارجي الاجتماعي والداخلي النفسي - هي التي تضمن للإنسان استمرار التقدم واتقاء السقوط والتخلف ولذلك وصفت العبادة بأن من ثمراتها التقوى أو اتقاء أسباب السقوط. فالعبادة الله ترقى بالإنسان إلى ما يناسب إنسانيته من فضائل في الفكر والسلوك، وتقيه مخاطر التخلف في الفكر والسلوك والرقي حالة من الترفع العقلي والنفسي والاجتماعي ترفع بالإنسان إلى مستوى السلوك الحضاري والقرآن يسمي هذا الرقي - في مواطن عديدة - - باسم - التقوى، ويجعله نتيجة لازمة للعبادة

ويتوجه بها الجميع البشر :يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون). (البقرة: ٢١).

وبذلك تكون حاجة الإنسان إلى عبادة الله ومحبته تقابل حاجته إلى الطعام والشراب هذه لاستمرار حياة روحه وقلبه، والثانية لاستمرارحياة جسده.

السبب الأول؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني» يقود إلى الغفلة عن المظهر الاجتماعي» وعن المظهر الكوني» فيتعطل البحث فيهما وتنحسر العلوم الاجتماعية والكونية أو تنحرف عن غاياتها ومسارها الصحيح. وبذلك ينتهي أمر المجتمع إلى التفكك والإنهيار.

والسبب الثاني؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني يؤدي إلى إخراج فريق من المتدينين يتصف بالتواكل والكسل والجبرية. وهذا هو ما حدث في العصور الإسلامية المتأخرة حين تفتت مظاهر العبادة فتفتت مفهوم - المعرفة وحصرت مؤسسات التربية والتعليم مفهوم العبادة في المظهر الديني فشاعت المشيخة المحترفة والدروشة المحترفة، وشاع الكسل والعجز والجبرية والسلبية إزاء الكوارث من داخل والتحديات من خارج

والسبب الثالث؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني يحرم المشتغلين في ميادين الاجتماع» و «الكون من التوجيه والإرشاد فتشيع في حياتهم التمرد على القيم والأخلاق والتصارع على الدنيا، ويقتصر اهتمامهم عليها. وهذا ماضرب المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة وأدى إلى الفتن وأسباب الانقسام .

تخصص مقلدوا القديم بالعلوم العبادة في المظهر الديني وتخصص مقلدو الجديد بالعلوم الاجتماعية والكونية المنفصلة عن العلوم الدينية. ونتج عن ذلك كله ثنائية متنافرة في الأجيال الحديثة للمجتمعات الإسلامي وتدني مستوى الشخصية الإسلامية عما كانت عليه في مطلع الرسالة.

والسبب الرابع ؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني يعطل رسالة الدين في الإصلاح الاجتماعي ويكبله عن محاربة الشر، بل يحيله إلى عامل دعم للشرور اليومية الجارية، وهذا هو السبب الذي جعل - المترفين - في كل جيل ينادون بفصل الدين عن الحياة! وهو نفس السبب الذي جعل الجماهير المظلومة تنضوي تحت لواء المتنكرين للدين.

وإلى التحام المظهر الديني والمظهر الاجتماعي يشير القرآن عند قوله – تعالى-:((وليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء رحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)). ) البقرة: ۱۷۷)

أما الإشارة إلى التحام المظهر الديني للعبادة بالمظهر الكوني فمثلها قوله -تعالى- ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)). (آل عمران: ۱۹۱).

و«البر» - المشار إليه في الآية الأولى والذي هو اسم جامع الجميع الخصال الحميدة ليس حركات وتوجهات وإنما هو اعتقاد صحيح، وعبادة مخلصة، وتكامل اقتصادي واجتماعي واجتماع قائم على الأخلاق الرفيعة، وصبر على تكاليف الجهاد والعمل.

والتوجيه الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم يقرن المظهر الديني» للعبادة الذي أهم تطبيقاته الصلاة بـ «المظهر الاجتماعي الذي أهم تطبيقاته بذل المال. فصل لربك وانحر). والنحر آنذاك كان يتناول أثمن الممتلكات عند العربي ورأس ماله الأساسي. وفي الحديث القدسي: «إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهذا ما فهمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك قول ابن مسعود: ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق. وفي أركان الإسلام تقترن الصلاة بالزكاة اقتراناً لا انفكاك له بحيث لا تكفي إحداهما عن الأخرى.

ويبدأ التنكر للدين عند تعطيل "المظهر الاجتماعي" للعبادة. ويتم ذلك على خطوتين: الأولى قيام الفئات المترفة بتعطيل المظهر الاجتماعي للعبادة والإبقاء على "المظهرالديني" فقط. وهم يفعلون ذلك لأن المظهر الاجتماعي للعبادة يفرض عليها أشكالا من المسؤولية الاجتماعية والاقتصادية إزاء أصحاب الحاجات والطبقات الأخرى ولذلك كان محبو النعيم والتلذذ بالشهوات الذين يشير إليهم القرآن باسم - المترفين - طوال عصور التاريخ يعملون على الفصل بين المظهر الديني وبين «المظهر الاجتماعي»؛ وإلى مثل ذلك كانت الإشارة إلى قوم شعيب

قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء). (هود: ۸۷).

والذين يعطلون المظهر الاجتماعي للعبادة غالباً ما يضيفون لـ «المظهر الديني» أشكالاً مخترعة من البدع والطقوس ومظاهر التدين السلبي كالدروشة وتقديس الصالحين ،الأموات والاحتفالات الدينية، وكثيراً ما يقلبون معاني المصطلحات الدينية نفسها كأن يحولوا معنى الزهد من كونه زهد الأغنياء بما في أيديهم ليجعلوه زهد الفقراء بما يحتاجونه من ضروريات حياتهم.

ثم تأتي الخطوة الثانية من التنكر للدين كنتيجة لازمة للخطوة الأولى. فحين يتعطل «المظهر الاجتماعي» للعبادة فإن الدين يتوقف عن رسالته في العدل الاجتماعي  والتكافل الاقتصادي .

**كمال العبادة :**

وتبلغ العبادة أكمل صورها من خلال الرسوخ بالمعرفة والعلم المفضي إلى العمل والتطبيق في مظاهر العبادة التي من ذكرها .

ومن الإشارات التي تدل على كمال العبادة أن يتوفر في شخصية الإنسان العابد ثلاثة أمور: محبة كاملة لله من خلال العلم بنعمه، ورجاء وتوكل كامل عليه خلال العلم بقدرته، وخوف كامل منه وحده من خلال العلم بقوته وجبروته وسلطانه.

ومحصلة هذه الأمور الثلاثة هي - التقوى وخشية الله - ولذلك قال تعالى : ((وإنما يخشى الله من عباده العلماء)) ( فاطر: ۲۸) .

وهذا ما فهمه الرازي في تفسيره حين قال الأمر بالعبادة مشروط بحصول المعرفة، كما أن الأمر بالزكاة مشروط بحصول النصاب.

السبب الأول؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني، يقود إلى الغفلة عن المظهر الاجتماعي، وعن المظهر الكوني، فيتعطل البحث فيها وتنحسر العلوم الاجتماعية والكونية أو تنحرف عن غاياتها ومسارها الصحيح. وبذلك

ينتهي أمر المجتمع إلى التفكك والإنهيار.

والسبب الثاني؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني، يؤدي إلى إخراج فريق من المتدينين يتصف بالتواكل والكسل والجبرية، وهذا هو ما حدث في العصور الإسلامية المتأخرة حين تفتت مظاهر العبادة فتفتت مفهوم - المعرفة وحضرت مؤسسات التربية والتعليم مفهوم العبادة في المظهر الديني فشاعت المشيخة المحترفة والدروشة المحترفة، وشاع الكسل والعجز والجبرية والسلبية إزاء الكوارث من داخل والتحديات من خارج .

والسبب الثالث؛ أن حصر مفهوم العبادة في المظهر الديني يحرم المشتغلين في ميادين الاجتماع» و «الكون من التوجيه والإرشاد فتشيع في حياتهم التمرد على القيم والأخلاق والتصارع على الدنيا، ويقتصر اهتمامهم عليها. وهذا ما ضرب المجتمعات الإسلامية في العصور المتأخرة وأدى إلى

الفتن وأسباب الانقسام .

وحين انتبهت المجتمعات الإسلامية الحديثة لآثار هذا العنف لم تبدأ المراجعة والتقويم في ميدان التربية وإنما لجأت في مطلع الرسالة.  والسبب الرابع أن حضر مفهوم العبادة في المظهر الديني يعطل رسالة الدين في الإصلاح الاجتماعي ويكبله عن محاربة الشرء على يحيله إلى عامل دعم للشرور اليومية الجارية، وهذا هو السبب الذي جعل - الترفين في كل جيل ينادون بفصل الدين عن الحياة وهو نفس السبب الذي جعل الجماهير المظلومة تنضوي تحت لواء المتنكرين للدين.

وإلى التحام المظهر الديني والمظهر الاجتماعي يشير القرآن عند قوله تعالى :وليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .(سورة البقرة الآية (۱۷۷).

أما الإشارة إلى التحام المظهر الديني للعبادة بالمظهر

الكوني فمثلها قوله تعالى : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار). (سورة آل عمران : الآية (۱۹۱).

.

ويبدأ التنكر للدين عند تعطيل المظهر الاجتماعي للعبادة. ويتم ذلك على خطوتين الأولى قيام الفئات المترفة بتعطيل المظهر الاجتماعي للعبادة والإبقاء على المظهر

الديني فقط. وهم يفعلون ذلك لأن المظهر الاجتماعي للعبادة يفرض عليها أشكالاً من المسؤولية الاجتماعية والاقتصادية إزاء أصحاب الحاجات والطبقات الأخرى. ولذلك كان محبو النعيم والتلذذ بالشهوات الذين يشير إليهم القرآن باسم - المترفين - طوال عصور التاريخ يعملون على الفصل بين المظهر الديني وبين المظهر الاجتماعي؛ وإلى مثل ذلك كانت الإشارة إلى قوم شعيب- قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء). (سورة هود الآية (۸۷) .

والذين يعطلون المظهر الاجتماعي للعبادة غالباً ما يضيفون لـ «المظهر الديني أشكالاً مخترعة من البدع والطقوس ومظاهر التدين السلبي كالدروشة وتقديس الصالحين الأموات والاحتفالات الدينية، وكثيراً ما يقلبون معاني المصطلحات الدينية نفسها كأن يحولوا معنى الزهد من كونه زهد الأغنياء بما في أيديهم ليجعلوه زهد الفقراء بما يحتاجونه من ضروريات حياتهم .

ثم تأتي الخطوة الثانية من التنكر للدين كنتيجة لازمة للخطوة الأولى فحين يتعطل المظهر الاجتماعي للعبادة فإن الدين يتوقف عن رسالته في العدل الاجتماعي والتكافل الاقتصادي، ويتوقف عن رسالته في مكافحة الشر بل يستحيل إلى إحدى الوسائل التي تدعم الشر وتكرس آلام أصحاب الماسي، وتحذرهم عن العمل للتخلص منها. وهنا تصبح الجماهير المحرومة مهيأة للتنكر للدين والثورة عليه.

لذلك كله اعتبر الإسلام الفصل بين المظهر الديني للعبادة وبين المظهر الاجتماعي، تكذيباً بالدين نفسه، عندما یقول -عزوجل- :

((أرأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون))  .

والدع - هو القهر والتسلط و ـ اليتيم - لا يقتصر معناه على الصغير الذي فقد أباه وإنما هو الصغير والكبير الذي فقد النصرة والإنصاف قال ابن عباس في رسالة أجاب بها عن أسئلة وجهت إليه : .... وكتبت تسألني متى ينقضي يتم اليتيم؟ لعمري إن الرجل تنبت لحيته وإنه لضعيف الأخذ لنفسه ضعيف العطاء منها، فإذا أخذ لنفسه من صالح ما يأخذ الناس فقد ذهب عنه اليتم ......

وعلق النووي على ذلك بقوله: إن حكم اليتيم لا ينقضي بمجرد البلوغ ولا بعلو السن (۱). وبذلك تكون جماهير الشعب المستضعفة أيتاماً فمن

قهرهم وتسلط عليهم فهو مكذب بالدين. ولذلك تابعت السورة التنديد بـ - المصلين - الذي يمارسون المظهر الديني للعبادة ويسهون عن المظهر الاجتماعي المشار إليه هنا باسم - الماعون - والذي فسره الإمام علي بأنه الزكاة المفروضة (۲) بينما فسره ابن عباس بأنه كل ما يعين الناس على شؤون حياتهم ويجعلهم يتفرغون من الهموم لأداء دينهم (۳) .

ويلاحظ على السور القرآنية القصيرة التي اختصرت مشاهد الآخرة مثل: سورة الليل» و «البلد» و «الفجر» و الماعون أنها تكرر فيها ورود صورتين متقابلتين صورة أهل الجنة، وصورة أهل النار وتتركز الصفات المفصلة لكل من الفريقين حول موقفهما من المال من حيث جمعه وإتفاقه كما أمر الله، أو نهبه وبعثرته طبقاً للنزوات والشهوات. وهذا

يؤكد على أن المظهر الاجتماعي للعبادة هو محك الصدق في والمظهر الديني. فالأول هو الإيمان العملي، والثاني

**هو الادعاء النظري ! والرسول صلى الله عليه وسلم كان يشترط على من يبايعه أن يجمع في إسلامه المظاهر الدينية والمظاهر الاجتماعية للعبادة، عن السدوسي يعني ابن الخصاصية ، رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله . فقلت يا رسول الله : أما اثنتان فوالله ما أطيقهما الجهاد والصدقة. فإنهم زعموا أن من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله ، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة فوالله مالي إلا غنيمة وعشر ذود هن رسل أهلي وحمولتهم.**

**قال : فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حرك يده ثم قال : فلا جهاد ولا صدقة، فلم تدخل الجنة إذا ؟ قال: قلت يا رسول الله : أنا أبا يعك قال: فبايعت عليهن كلهن (۱).**

(1) مسند أحمد ، برقم ٢٤

وهذا الفهم الذي يجمع بين المظهر الديني والمظهر الاجتماعي للعبادة كان وراء الموقف الحازم الذي وقفه أبو بكر من حركة - الردة والمرتدين - بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هذا الفهم كانت صيحته المشهورة أمام عمر بن الخطاب والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

كمال العبادة :

وتبلغ العبادة أكمل صورها من خلال الرسوخ بالمعرفة والعلم المفضي إلى العمل والتطبيق في مظاهر العبادة التي مر ذكرها

ومن الإشارات التي تدل على كمال العبادة أن يتوفر في الشخصية الإنسان العابد ثلاثة أمور: محبة كاملة الله من خلال

العلم بنعمه، ورجاء وتوكل كامل عليه من خلال العلم بقدرته وخوف كامل منه وحده من خلال العلم بقوته

وجبروته وسلطانه . ومحصلة هذه الأمور الثلاثة هي - التقوى وخشيةالله - ولذلك قال تعالى :- وإنما يخشى الله من عباده العلماء). (سورة فاطر:الآية (۲۸) .

وهذا ما فهمه الرازي في تفسيره حين قال: الأمر بالعبادة مشروط بحصول المعرفة، كما أن الأمر بالزكاة مشروط

بحصول النصاب .

- أثر غياب مفهوم «العبادة» في التربية الحديثة ونقد المعاصرين لذلك :

كان الفكر الكنسي يوجه التربية قبل النهضة الحديثة ويقدم مفهوماً للعبادة لا صفاء فيه لـ «المظهر الديني ولا وجود ل والمظهر الاجتماعي والمظهر الكوني. وبسبب هذا الاضطراب والنقص، قام رد فعل معاكس واتخذت التربية طابعاً علمانياً لا أثر للعبادة فيه .

ولقد بدأ هذا التصور العلماني لوظيفة التربية وثمراتها ابتداء من فرانسيس بيكون الذي قال إن هدف المعرفة يجب أن يكون النفعية، وإن سبب الانحطاط والتخلف هو اشتغال الإنسان بأفكار وقضايا خاطئة.

ثم تتالت التفصيلات والتفريعات في القرن الثامن عشر على أيد أمثال: فونتانل، ودي سانت بيير، والكونت دي فولني.

وخلاصة آرائهم أن التفكير العلمي قاد إلى تقدم العقل وتقدم الحضارة التي ما زالت في طفولتها، وأن العصر الذهبي قادم في المستقبل حيث تلغى الحروب وتحل الحكومات ويبلغ الإنسان درجة الكمال، ويتحد الناس في مجتمع واحد ويدخلون العصر الذهبي وهو إقامة الجنة على الأرض ).

ثم جاء ـ سان سيمون - وأمثاله في القرن التاسع عشر فقال إن الكنيسة أدت دورها في العصور الوسطى. والآن يجيء دور العلم والعلماء ليوجهوا التقدم والتربية العامة .

**مهم من هنا**

ثم جاءت مدرسة أوجست كونت فقدم عرضاً للتطور التاريخي كما يراه معتمداً على تطور التاريخ الأوروبي. و خلاصة آرائه أن التاريخ مر بفترات ثلاث : الأولى، الفترة الدينية حيث الكنيسة وجهت الفكر والتربية. وهي فترة انتهت حوالي عام ١٤٠٠ ميلادي. والفترة الثانية: فترة الفلسفة الميتافيزيقية التي قامت بنقد الكنيسة وتقليل نفوذها وهي مرحلة ضرورية على طريق التقدم وتكاد تكون في طريقها إلى الانتهاء في عصر كونت نفسه. ثم الفترة الثالثة وهي فترة الفلسفة الوضعية التي يمهد لها ـ كونت ـ نفسه .:

وانطلاقاً من هذا الدور الذي ادعاه كونت نفسه دعا إلى ضرورة بلورة علم الاجتماع وإلى تعاون علم الأحياء والكيمياء للإسهام في وضع علم الاجتماع العلمي، وذكر أن من مزايا الفترة الثالثة التي يدعو إليها هي : تنظيم المجتمع من خلال علم الاجتماع العلمي، وأن العالم ستقوده القوانين العلمية والعلماء الذين يرسخون في هذه القوانين ويديرون نظام تربية عالمية ويضعون قواعد الأخلاق للجنس البشري . وسيكون هذا العلم أكثر قدرة من الكنيسة على حفظ حقوق الطبقات الدنيا. وأخيراً دعا إلى دين جديد هو عبادة الإنسانية .

ثم دخل القرن العشرين وأخذت ثمار التطبيقات العلمانية للتربية تبرز أولاً بأول. فلم تقم جنة الأرض التي وعد بها مفكرو القرن الثامن عشر والتاسع عشر من أمثال فونتانل و سانت بيير - ولم يتحقق السلام وإنما انفجرت جهنم أرضية فيها مسلسلات من الحروب العالمية التي أصابت آثارها العسكريين والمدنيين والصراعات الطبقية والمشكلات الاجتماعية وبدأت النتائج السيئة للتربية الجديدة تثير الشكوى - كما يقول جون بروباخر ـ من أن التعليم العام قد غالى في تجنب التعصب الديني حتى أهمل الدين أكثر مما يقتضي الأمر، وبدأت التساؤلات عن طبيعة الدين المطلوب والتعاليم الدينية المطلوبة كما فصلنا في مطلع هذا البحث، وما زال مسلسل الآثار السلبية للتربية الحديثة وتعالي النقد لها مستمراً وفي اتساع مضطرد. ولقد علق - فيليب ريف - على هذا التطور بقوله :

"توقع التكنولوجيون في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وفي أوائل هذا القرن أن يتطور ضمير الإنسان. وتوقع بنيامين فرانكلين هذا التطور أكثر من غيره. فأنشأ هو وأصحابه أول جامعة أميركية هي جامعة بنسلفانيا وأكسبوها طابعاً دنيوياً علمانياً لم يثبتوا فيها برامج تقدم تراثاً دينياً أو فلسفياً، وإنما ركزت على الفنون المهنية ولذا كانت عنايتها بالتكنولوجيا".

ولقد مر معنا تعليق - ماسلو - على هذا التطور حينها قال:

.... فإن ملحد القرن التاسع عشر قد حرق البيت بدل أن يعيد ترميمه. فلقد رمى بجميع الأسئلة التي يطرحها الدين وبإجاباتها معاً وأدار ظهره لكل مقررات الدين، لأن القائمين على الدين قد طلعوا عليه بإجابات لا يستطيع قبولها، ولا تقوم على شواهد وبراهين يمكن أن يبلعها العالم الذي يحترم نفسه .

لذلك يكفي أن نستعرض قائمة المعلومات التالية كدليل على فشل التربية الحديثة

۱ - في آب عام ١٩٧٥ أقدم تلميذان توأمان من مدينة بتسبرج على الانتحار لأن والدهما وبخهما بسبب السرقة

والكذب علما بأن عمر كل منهما عشر سنوات.

۲ - في أيلول ۱۹۷۵ أقدم الطالب - إيجل سكاوت - البالغ من العمر ١٨ سنة ومن مدينة ساندياجو على قتل والديه وأخته بالبلطة لأن والده عاقبه لتدني علاماته المدرسية .

٣ - في المدة نفسها أقدم الطالب - مايكل سلوبوديان وطالباً آخر  - على قتل معلمه و جرح ١٣ طالباً ثم قتل نفسه بالرصاص لان معلم الفيزياء ومعلم الرياضيات ٲرسلا إلى والديه يعلمانهما بكثرة غيابه.

٤ - تنفق الولايات المتحدة سنوياً ٥٩٠ مليون دولار لإصلاح الخراب الذي يحدثه الطلبة في المدارس، وأن ثمن الزجاج الذي يحطم في مدارس مدينة واحدة يعادل ثمن بناء

مدرسة جليلة.

5- تنفق المدارس رواتب للحراس ما يعادل أثمان الكتب المدرسية سنوياً. ففي مدينة لوس انجلوس وحدها تنفق إدارة التعليم مليونين دولار رواتب حراس مدارس، وفي مدينة نيويورك تنفق ٤ ملايين دولار للحراسات المدرسية.

6 - يتكرر الاعتداء على المعلمين والمعلمات في كليوم مئات المرات ويتكرر اغتصاب الطالبات، ومن التعليمات التي توزع على الطالبات والمعلمات أن لا يقفن منفردات في آية ساحة من ساحات المدرسة.

7- في مدينة لوس انجلوس هناك حوالي ٣٠٠ ضابط أمن في المدارس ومع هذا فقد ذكر مساعد مدير التربية أن طالباً هاجم معلمة بالسكين وذبحها في قاعةالدرس ثم نزع ملابسها واغتصبها أمام الصف، واسم الطالب هو - جري هالفرسون Jerry Halverson - .

8- ذكر السيناتور - بيرتش باي - في مقدمتهللكتاب ما يلي : إن عدد الطلبة الأمريكان الذين قتلوا خلال الخصومات في ساحات المدارس ما بين عامي ۱۹۷۰ - ١٩٧٤ يفوق عدد القتلى من الجنود الأميركان في فيتنام خلال الفترة المذكورة .

ويضيف مؤلف الكتاب أن دراسة أجريت عام ۱۹۷۳ في منطقة مدرسية واحدة فتبين أن أكثر من مائة طالب قتلوا .

9- في مدارس مدينة نيويورك يباع بين طلاب

المدارس من المخدرات يومياً ما قيمته ٦٠٠ سنة مائة دولار. وعند الحديث عن هذا الموضوع أضاف الباحث - روبين

لويد - التعليق التالي :

.... ومن الخطأ الفادح أن يستنتج من هذه الأمثلة أن مشكلات الخمر والمخدرات موجودة في مدارس المدن الكبرى فقط. ففي دراسة أجرتها كلية الصحة العامة والإدارة الطبية في جامعة في كولومبيا في المدارس الواقعة في ضواحي ولاية البنوي تبين أن ٣٤,١ ٪ من الطلبة يتعاطون الماريجوانا،

و ۱۸,۲ % يتعاطون الباربتوريك و ١٥,٧% يتعاطون الأمفتامين و ٢٦% يتعاطون مادة الـس. د. (LSD) و ۸۲ يتعاطون الكوكايين و ٤,٧% يتعاطون الهرويين. ولقد علق على ذلك مدير التربية قائلاً : إن أي مدير تربية يدعي أنه ليس لديه مشكلة المخدرات في المدارس العامة هو إما أن يكون مذنباً بإخفاء الحقائق أو جاهلاً بما يجري .

لإن التربية الحديثة تحرم من حاجتين أساسيتين في وجود الإنسان هما : وجود "مثل أعلى" يتبناه الناشئة ويفنون فيه وتوفير فرص المشاركة الجدية لخدمة هذا المثل الأعلى وصرف الطاقات المتفجرة في سبيله. وهاتان الحاجتان هما ما تتميز به - علاقة العبادة - في فلسفة التربية الإسلامية إن فقدان هاتين الحاجتين من التربية الحديثة أفرز مضاعفات سلبية في حياة الناشئة أهمها ما أسماه «فقهاء) التربية الحديثة بـ «المراهقة». وهذه فتوى خاطئة أصدرها علماء النفس الحديثين تبريراً للسياسات الجائرة التي يمارسها مترفو العصر من أصحاب الرأسمالية والشركات الدولية. فالمراهقة ليست ظاهرة حتمية في تطور العمر الزمني للانسان . إنها مشكلة يمكن تجنبها كلياً من حياة الفرد وأن لا يمر الٳنسان بها ٲبدا .

وهي من مزاعم - علماء النفس - في المجتمعات الصناعية الرأسمالية ومرض من أمراضه الاجتماعية وهي تحصل كالتالي :

في المجتمعات الرأسمالية الصناعية يجري الفرد ليكون عاملاً منتجاً - مستهلكاً، ولكن في كثير من الأحيان يصبح عدد العمال أكثر من الوظائف المتوفرة، ولذلك يبقى الفرد مستهلكاً غير منتج. وتتضاعف حدة هذه المشكلة عند الناشئة حيث يبقون دون عمل ولا رسالة في الحياة تستهلك قدراتهم وطاقاتهم العارمة، ويطلب إليهم أن يتكدسوا في شوارع الاحتياط دون عمل أو نشاط حتى تأتي الحاجة إليهم. وفي هذه الحالة بدل أن يستهلك الإنسان طاقاته في عمل بناء يدخل في صراع مع هذه الطاقات النفسية والجسدية الباحثة عن متنفس وهو ما أسموه بالمراهقة.

. فالمراهقة هي مصارعة طاقات وقدرات عقلية ونفسية وجسدية معطلة محبوسة. ولمواجهة هذه المشكلة لجأت المجتمعات الحديثة إلى وسيلتين : الأولى؛ إطالة مدة الدراسة المدرسية حيث يسجن الشباب والشابات في غرف الدرس حوالي ٢٥ سنة من عمرهم ليستمعوا للكلام دون العمل وليعانوا من ضيق الطاقات المحبوسة وما قد يتبع ذلك من انفجارات نفسية وجسدية تتمثل في الانحرافات والممارسات التي استعرضنا نماذج منها .

والوسيلة الثانية هي محاولة إشغال الناشئة بمشروعات الرياضة وبرامج الشباب والفن ولكنها حلول سطحية لا تتناسب ووسع الإنسان الذي أودعه الله فيه، ولا توفر النشاط إلا لعدد قليل جداً تصيبهم الأمراض النفسية والاجتماعية أكثر من غيرهم عن طريق ألقاب البطولة الرياضية والفنية التي يطلقونها عليهم .

لقد تجنبت التربية الإسلامية مرض المراهقة ومضاعفاته حين أوجدت للشباب مثل أعلى أو رسالة يصرف طاقاته خلال الجهاد في سبيلها، وحين وفرت للشباب فرص المشاركة جنباً إلى جنب مع الكبار من خلال المجالس العامة والمواجهات العامة التي كان يمارسها الكبار، ومن خلال المشاركة في فرص العمل الجهادي والاجتماعي، وليست ظاهرة التربية الإسلامية ظاهرة تاريخية بل ظاهرة مستمرة فكل فرد يجد الفرصة لتلبية حاجته النفسية في المثل الأعلى والعمل في سبيله لا يمر في مرحلة المراهقة السلبية، وأحسن مثال لذلك هم الناشئة الذين يشاركون في المبادىء والنشاطات الايديولوجية التي تتبناها حركات الإصلاح المختلفة .

ومن الموضوعية إن نقول أن مؤسسات التربية في العالم الإسلامي لا تجسد - علاقة العبادة - بمظاهرها الثلاثة التي استعرضناها . إن المشكلة التي تعاني منها هذه المؤسسات هي

التقليد والاغتراب، وتتجلى مضاعفات هذه المشكلة في أمرين :

الأول؛ في مؤسسات التربية الحديثة، وهذه تقلد المؤسسات التربوية في الغرب وتقوم بنفس المهمة ولكن بدرجة أسوأ. فالفرد في هذه المؤسسات يعد ـ كما هو في العالم الثالث عامة - ليكون بالدرجة الأولى مستهلكاً لكل ما يرد إلى الأسواق من المصانع الخارجية، ولا يكون منتجاً» إلا بالقدر الذي تتطلبه أعمال السكرتاريا والبيروقراطية التي تدير العمل في الوكالات التي تتولى تسويق المنتجات الواردة. وهي مؤسسات مغتربة عن قضايا المجتمعات الإسلامية الحاضرة. لذلك فإن مشكلة المراهقة أخذت تبرز في هذه المجتمعات وبحدة قد تكون أسوأ في بعض الأحيان.

والأمر الثاني: في مؤسسات التربية الإسلامية وهذه عزلت عن واقع الحياة فهي تحدث الناشئة عن «المثل الأعلى» الذي رفعه الآباء ولكن لا توفر لهم فرص المشاركة في خدمة المثل الأعلى، وتكون النتيجة هي قول لا عمل تتفجر مضاعفاته في أشكال التطرف والتزمت أو التحلل والمروق .

.................

وانطلاقاً من هذا الدور الذي ادعاء كونت نفسه دعا إلى ضرورة بلورة علم الاجتماع وإلى تعاون علم الأحياء والكيمياء للإسهام في وضع علم الاجتماع العلمي، وذكر أن من مزايا الفترة الثالثة التي يدعو إليها هي: تنظيم المجتمع من خلال علم الاجتماع العلمي، وأن العالم ستقوده القوانين العلمية والعلماء الذين يرسخون في هذه القوانين ويديرون نظام تربية عالمية ويضعون قواعد الأخلاق للجنس البشري . وسيكون هذا العلم أكثر قدرة من الكنيسة على حفظ حقوق الطبقات الدنيا. وأخيراً دعا إلى دين جديد هو عبادة الإنسانية

أما في بريطانيا وأميركا فقد فتح دارون وسبنسر عهداً فكرياً جديداً في الستينات من القرن التاسع عشر وبدأ الفكر فترة جديداً أدبرت عن مقولات الكنيسة حتى أفرزت فلسفات كان أبرزها فلسفة التربية البراجماتية التي قادها كل من وليم جيمس وجون ديوي .

ثم دخل القرن العشرين وأخذت ثمار التطبيقات العلمانية للتربية تبرز أولاً بأول فلم تقم جنة الأرض التي وعد بها مفكرو القرن الثامن عشر والتاسع عشر من أمثال فونتانل و سانت بيير ولم يتحقق السلام وإنما انفجرت جهنم أرضية فيها مسلسلات من الحروب العالمية التي أصابت آثارها العسكريين والمدنيين، والصراعات الطبقية والمشكلات الاجتماعية وبدأت النتائج السيئة للتربية الجديدة تثير الشكوى - كما يقول جون بروباخر ـ من أن التعليم العام قد غالى في تجنب التعصب الديني حتى أهمل الدين أكثر مما يقتضي الأمر، وبدأت التساؤلات عن طبيعة الدين المطلوب والتعاليم الدينية المطلوبة كما فصلنا في مطلع هذا

البحث، و ما زال مسلسل الآثار السلبية للتربیة الحديثة وتعالي النقد لها مستمرا في اتساق مضطرد.ولقد علق - فیلیب ریف- علی هذا التطور بقوله:

"توقع التكنولوجيون في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وفي أوائل هذا القرن أن يتطور ضمير الإنسان. وتوقع بنيامين فرانكلين هذا التطور أكثر من غيره. فأنشأ هو وأصحابه أول جامعة أميركية هي جامعة بنسلفانيا وأكسبوها طابعاً دنيوياً علمانياً لم يثبتوا فيها برامج تقدم تراثاً دينياً أو فلسفياً، وإنما ركزت على الفنون المهنية ولذا كانت عنايتها بالتكنولوجيا. وفي رأيي أن هذا التطور لضمير الإنسان لم يتحقق في واقع الإنسان ".

ولقد مر معنا تعليق - ماسلو - على هذا التطور حينما قال :

" فإن ملحد القرن التاسع عشر قد حرق البيت بدل أن يعيد ترميمه. فلقد رمى بجميع الأسئلة التي يطرحها الدين وبإجاباتها معاً وأدار ظهره لكل مقررات الدين، لأن القائمين على الدين قد طلعوا عليه بإجابات لا يستطيع قبولها، ولا تقوم على شواهد وبراهين يمكن أن يبلعها العالم الذي يحترم نفسه".

وتتوالى - الآن الآثار السلبية للتربية العلمانية القائمة والتي انتشرت في أقطار الأرض كلها بانتشار النفوذ والتكنولوجيا الغربيين.

إن أبرز جوانب الخطأ في التربية القائمة أنها تصطدم بطبيعة الإنسان وتكوينه واستعداداته . فالأجيال البشرية تحتوي دائماً على أنماط من الناشئة : أناس تزودهم الفطرة الإلهية بالاستعدادات والقدرات اللازمة للبحث في قضايا النشأة والمصير، وأناس تزودهم بالاستعدادات والقدرات اللازمة للبحث في قوانين الكون وتسخيره، وأناس تزودهم بالاستعدادات والقدرات اللازمة الترجمة ثمرات البحث التي يفرزها هؤلاء وأولئك إلى نشاطات وممارسات وتطبيقات عملية. ولكن التربية الحديثة أغلقت البحث في الميدان الأول - ميدان النشأة والحياة والمصير. ووجهت الفئتين الأوليتين إلى ميدان البحث في قوانين الكون وتسخيره فنتج عن ذلك أمران خطيران : الأول؛ ضيق الفئة الٲولی التي تبرمها بالحياة المادية الضيقة التي ٲفرزتها التربیة المعاصرة.

والأمر التالي حرمان الفئتين الأخرتين من التوجيهات والعقائد والاط السلوك التي يمكن أن تقدمها هم الفئة الأولى فيها لو توجهت إلى ميادين البحث فيما يناسب قدراتها واستعدادايا.

ونتج عن ذلك كله حرمان الفئات الثلاث من الإجابة من الأسئلة التي تدور في أذهان الجميع عن قضايا المنشأ والقصير وفيها طال الحرمان اشتد الظمأ فالقسم الناشئة والأجيال القائمة إلى قسمين

قسم السحب من الحياة القائمة وراح يبحث عن إله يعيده ودين يعتقده وصورة للإنسان تناسب وما يبحث عنه وقسم السحب من الحياة في الاتجاه المعاكس وراح يبحث عن السعادة في دنيا الأوهام التي تقدمها له حياة الانحلال والمخدرات وألوان الانحراف ولعل أكبر مثل لذلك هو ما يجري على مسرح القارة الأميركية نفسها. فالناشئة هناك رغم العناية الكبيرة بالتربية ومؤسساتها - ينقسمون إلى فريقين الذين يطابقان التقسيم الذي قدمناه قبل سطور

فريق يجري وراء كل نحلة دينية تدعو إلى الدين والعبادة وتطرح أجوبة للأسئلة القائمة في وجدان الناشئة عن المنشأ والمصير. ويذكر - مارفن هاريس ـ في البحث الذي أجراه أنه يجون الآن في القارة الأميركية عشرات المتنبئين الذين يزعمون أنهم دعاة راشدون أو رسل مبعوثون أو الهة تمشي على الأرض. ويمثل هؤلاء نحل الهندوسية والبوذية والقاديانية ونحل أخرى كثيرة يلتف حولهم الشباب والشابات ويبذلون لهم كل ما يطلبونه ويجوبون معهم الغابات والوديان والمدن والولايات ويصف - مارفن هاريس - كثرة هؤلاء المتنبئين فيقول :

يكفي أن تتناول دليل تلفونات صغير لترى القائمة بأسماء أصحاب الألقاب الدينية مثل: الجورات (Gurus) والبوبات (Bubas)، والبابات (Babas)، والباوات (Bawas) واليوجين (Yosis) واليوجات (Yogas)، والمهاريشات (Marharishis) ، والمهاراجات (Maharajis) الذين بدأوا يجدون أتباعاً وتلاميذ في أميركا هذا إذا لم تذكر معهم بهلوانات اليسوعيين وأتباع مذهب الـ (UFO) والباقين الآخرين) (1) .

والباقون الآخرون تعبير لا أدري لماذا يستعمله هاريس - إذ أن بينهم من يدعو إلى عقائد صحيحة كدعاة الإسلام باختلاف انتماءاتهم وإن كانوا لهم مشكلاتهم الناتجة

عن عدم الفهم والخبرة. ولقد انتبه علماء الاجتماع فى الجامعات الأميركية لظاهرة البحث عن العقائد الدينية وتناولها قسم منهم بالبحث والدراسة وفسروها تفسيرات مختلفة فالبروفسور - روبرت بله - يرى أن في أميركا يقظة كبرى ثالثة مظهرها تقبل الروحانية الآسيوية ضد النفعية الفردية في الغرب، لأن الأديان الأسيوية تختلف عن الأديان الغربية التقليدية (المسيحية واليهودية في تركيزها على تطوير النفس من داخل أكثر من الطقوس الخارجية، وعلى التوازن مع الطبيعة أكثر من استغلالها، وعلى العلاقات الشخصية مع القائد الديني أكثر من العلاقات الشكلية التي لا أثر لها مع القس والكهان. كما أن الأديان الشرقية تنتقد المبالغة في جمع الثروة والقوة  .

ويتخذ - مارفن هاريس - موقفاً مغايراً لتفسير هذه اليقظة الدينية فيربطها بعملية البحث عن المشكلات الاقتصادية والطبقية وعدم تساوي الفرص إلى جانب البحث عن معاني جديدة للحياة والأشياء

ولسنا هنا في مقام مناقشة هذه الآراء وإنما نكتفي بالإشارة إلى أن هذه الظاهرة تشير إلى الفراغ الخطير في التربية المعاصرة التي تتجاهل قضية المنشأ والمصير رغم أهميتها في واقع الإنسان وحياته وهو يرى ظاهرة الحياة والموت في كل لحظة من لحظاته. وهو حين يجد من يتوقع عنده الإجابة - أية إجابة - يصبح بين يديه كالميت بين يدي غاسله. ففي ۱۹۷۹/۱۱/۱۸ حين طلب - جم جونز Jim Jones - رئيس النحلة الدينية المعروفة باسم - جماعة المعبد The People's Temple - أن ينتحروا سوية لينتقلوا إلى العالم الآخر نفذوا الأمر ومات أكثر من تسعمائة شخص في مدينة - جيانا - في ولاية كاليفورنيا، بعد أن قضوا سنوات يقدمون له ما يطلب ويزعم أنه يشفي المريض ويحيي الموتى (١) .

ومثله أتباع - من يونج مون - (Sun Myung Moon) الذي جاء من كوريا إلى أميركا ليلتف حوله الآلاف المؤلفة ويضغطون على الإدارات الأميركية من أجله. ومثله - ولاية خان Villayat Khan - الذي جاء بمزيج من الهندوسية والوثنية والصوفية المنحرفة وصار يجد الأتباع أينما توجه ويقيم المراكز.

أما الفريق الثاني - الذي سار في الاتجاه المعاكس اتجاه لانحلال - فالصحافة ومراسلي الإعلام وأساتذة الجامعات والباحثين كتبوا الكثير وما زالوا يكتبون الكثير. ونحن هنا فقط نقدم بعض الأمثلة من المدارس العامة (High Schools) الثانوية والمتوسطة والابتدائية. وتركز الشواهد من التقرير الذي أعده - روبين لويد - مراسل الشركة التلفزيونية (NBC) تحت عنوان من أجل المال أم الحب بغاء الأولاد في أميركا وكتب مقدمة الكتاب السيناتور - بيرتش باي Birch Bay - عضو اللجنة الفرعية في الكونغرس لدراسة انحراف الأحداث. ولقد أريد أن أذهب وراء تفاصيل الكتاب فذلك يخرجني عن موضوع البحث الذي يشكل محور الموضوع

**العلاقة بين الإنسان والكون**

**عـلاقـة تسخير–-**

1 ـ معنى التسخير : العلاقة التي تتطلع فلسفة التربية الإسلامية إلى بنائها بين الإنسان والكون هي ـ علاقة تسخير . وهي مشتقة من معنی علاقة الإنسان بالله ـ علاقة العبودية ــ لأنها تطبيق لـ «المظهر الكوني» للعبادة وسبب من أسباب تحقيق الشق الأول من العبادة وهو: كمال المحبة المفضية إلى الطاعة الكاملة . والتسخير ـ لغة ـش معناه : العمل والخدمة مجاناً. أما اصطلاحاً فمعناه : أن الله مكن الإنسان من استخدام مظاهر الكون في تطبيقات عملية نافعة للإنسان في مجالات حياته المختلفة دون ثمن يقدمه الله .

ولكن الكون لا يخدم الإنسان مجاناً إلا إذا فهم الإنسان كيف يوجه الأوامر إلى مظاهر الكون ومكوناته. وتوجيـه الأوامر هو: معرفة القوانين التي تسير هذه المكونات . فهذا الكون خلقه الله خادماً مطيعاً للإنسان، ولكن شرط الله على الكون أن لا يطيع الإنسان إلا إذا دعاه عن طريق معين، فإذا دعاه عن غير هذا الطريق فلا يستجيب الكون ويظل معرضاً صامتاً أمام الإنسان. وبذلك يكون الذي لا يستفيد من مقدرات الكون حوله هو إنسان جاهل للنداء الذي يستجيب الكون من خلاله. وهذا النداء هو كشف القوانين الكونية واستخدامها. وكما يستعصي القفل أن يفتح بغير مفتاحه ، كذلك الكون لا يستجيب بغير قوانينه . مثله في ذلك مثل السيارة التي لا تتحرك إلا مع من يعرف قوانين قيادتها. بل إن كل الآلات لا تتحرك للإنسان الذي يجهل قوانين تحريكها . وهكذا الزرع والشجر فإنه ازداد عطاؤه بمعرفة قوانين زرعه ، والحيوان يزداد عطاؤه بمعرفة قوانين تدجينه . فالتسخير يزداد بازدياد العلم بقوانين الله في خلقه . فالعلم والتسخير والقانون هي أمور مرتبطة بعضها ببعض . فالقانون هو الأداة التي خلقها الله لإعطاء الأوامر للكون . ـ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الجوهري، الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية

(۱) جودت سعيد، العمل، ص-٧٥-٥٩

والعلم هو معرفة هذا القانون، والتسخير هو نتيجة هذه المعرفة .

وتبدأ معرفة القانون باستخدام السمع والبصر والعقل استعمالاً صحيحا والذين لا يستخدمون أجهزة الوعي هذه لا يسخر لهم الكون. ولذلك يحث القرآن على استخدام هذه الأجهزة الثلاثة للوصول إلى العلم بمفاتيح الكون :

(ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا». (سورة الإسراء : الآية 36).

وكما يجب على كل فرد أن يستعمل هذه الأجهزة الثلاثة لنجاته في الآخرة فإنه يجب على البشرية ـ وعلى الدوام ـ أن تتدرب على حسن استخدام هذه الأجهزة لنجاحها في الحياة الدنيا. والتدريب على حسن هذا الاستخدام هو وظيفة التربية الصحيحة .

**٢ ـ أهداف التسخير:**

الغاية من التسخير هي أن يعلم الإنسان من خلاله قدرة الله المطلقة وعلمه المطلق ورحمته المطلقة .

فالكون مختبر يتحقق الإنسان فيه من «صحة» ما أخبر به الوحي ويطمأن إلى «صدق» ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ففي الكون يشهد الإنسان دقة خلق الكائنات وقوانين وجودها وتقلب أحوالها، ويتحقق من خلال ذلك من عظمة التربية الإلهية لعوالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد. وهذه علوم إذا شهدها الإنسان بعقله وحسه عرف أن الله «رب العالمين»، وصدق ما تلقاه سمعه من وأدرك ضرورة انفراد الله بالحب والعبادة :

قال تعالى: ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)). ( الطلاق : ١٢).

فالوحي والكون جزءان في سفر إلهي واحد: أحدهما يقدم «آيات الله في القرآن»، والجزء الثاني يقدم «آيات الله في الآفاق والأنفس» .

وهذا التكامل بين النوعين من الآيات هو معجزة الرسول الخالدة. وهو أمر أساسي في منهاج الدعوة ومنهاج التربية الإسلامية. فحين طلبت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة مادية وشواهد حسية لصدق ما جاء به تنزل الوحي بأن في مقدور أولي الألباب والأذكياء الموهوبين أن يدخلوا مختبر الكون ويشهدوا المعجزات والبراهين التي طلبوها. روى الواحدي في ـ أسباب النزول ـ أن قريشاً ذهبوا إلى اليهود وسألوهم : ما جاءكم به موسى من الآيات؟

قالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا : يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى:. فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ادع ـ لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا. فأنزل الله تعالى

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ». (سورة آل عمـران : الآية 190).

فالذي تتكشف عنه المعرفة العلمية والتكنـولـوجيـا ـ وما سوف تتكشف عنه ـ هو معجزات الرسالة الإسلامية ، وإلى هذه المعجزات أشار قوله تعالى : ـ

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾. (سورة فصلت : الآية 53). ومن هنا نعرف أهمية العلم بالنسبة للمسلم . فإذا رسخ المسلم في فهم معنى العلم فإن هذا العلم سيشهد بصدق الإيمان بالله واليوم الآخر وضرورتها، كما شهد العلم بصدق قوانين الجاذبية وأقنع الإنسان بمراعاة هذه القوانين وهو يقفز من السطح أو الطائرة ليتجنب كارثة التحطم . ولقد ازداد التسخير ـ في آيات الآفاق في الكون - بازدياد العلم بقوانين هذا الكون، وهو ما نسميه بتقدم التكنولوجيا .

أما التسخير في آيات الأنفس فما زال أقل وضوحاً وتقدماً. والذي تريده فلسفة التربية الإسلامية من الحض على النظر في ـ آيات الأنفس . هو اكتشاف قوانين النفس والرسوخ في فهم هذه القوانين بغية إقناع الإنسان على أن مخالفة قوانين الله في الأنفس كمخالفة قوانينه في الكون ، ومعرفة أن الذين لا يراعون قواعد الإيمان بالله واليوم الآخر فسوف يتحطمون ويتكسرون كا يتكسر الذين يقفزون من الطائرات ومن الأسطح دون مراعاة قوانين الجاذبية، وإن المجتمع الذي لا يراعي الناس فيه مسؤولياتهم التي أمر الله بها في علاقات الناس بعضهم ببعض فسوف يتحطم بسبب خروجه على قوانين الأخلاق أو قوانين الله في البشر كما يتحطم الذي يخرج على قوانين الطبيعة في الجاذبية والاحتراق .

**۳ ـ ميادين التسخير:**

حددت ـ فلسفة التربية الإسلامية ـ ميادين التسخير التي يجب أن تتوجه إليها أجهزة الوعي في الإنسان ـ العقل والسمع والبصر . وقيمة هذا التحديد هو حفظ هذه الأجهزة من التوجه إلى ما لا يمكن البحث فيه، ومن تبديد هذه الطاقات فيها لا طائل تحته من ـ الميتافيزيقا ـ التي لا برهان عليها ولا شواهد لها. –

ولقد تحددت ميادين التسخير المذكورة في ميدانين رئيسيين هما: ميدان الكون، وميدان النفس. ونحن هنا نركز البحث على ميدان الكون مؤجلين الإشارة إلى ميدان النفس إلى مكان آخر لعدم علاقته علاقة مباشرة بعلاقة الإنسان بالكون .

وتتحدد جوانب التسخير في ميدان الكون في عناصر الكون الرئيسة الثلاثة: الفضاء المحسوس، واليابسة الملموسة، والماء الكائن في المحيطات والبحار وما يتفرع عنها. ومن هذه الميادين الثلاثة تتفرع ميادين فرعية لا حصر لها : ـ

« {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. (سورة إبراهيم" : الآية ٣٢ – ٣٣) .

ـ (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) . (سورة لقمان : الآية ٢٠).

«وقوله تعالى - ( وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيات لِّقَوْمٍۢ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. (سورة الجاثية : الآية 13).

والذي في السموات والأرض له تفاصيل عريضة منها ما يلي:

1- ميدان الأفلاك والكواكب: فهذه الأفلاك مسخرة للإنسان وبقدرته اكتشاف قوانينها وخصائصها والاستفادة من ذلك في حياته العملية والعقلية .

ـ « وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍۢ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ" . ( الرعد : ٢).

ـ « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (النحل 12) .

ـ (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير) . (سورة لقمان : الآية ٢٩)

- «وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون

من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعـوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير». (سورة فاطر : الآية 13 ـ ١٥).

ـ «وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمی ألا هو العزيز الغفار» . (سورة الزمر: الآية 5). ويلحق بميدان الأفلاك والكواكب ـ الفضاء المحيط بها ـ وما فيه من الرياح والظواهر الطبيعية، وما يجري فيه ـ أو يتوصل إلى اكتشافه ـ من وسائل التنقل في الفضاء الكبير. ـ «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد . (سورة ص : الآية 36 ـ ٣٧) .

2- ميدان البحار والمحيطات : فهذه وما فيها من الكائنات مسخرة للإنسان عليه أن يستفيد منها في حياته المادية ويسترشد بالحكمة الكائنة في خلقها وقوانينها في حياته العقلية والنفسية . – " اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الجاثية 12) » -

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكرون﴾. (سورة النحل : الآية ١٤).

3- ميدان اليابسة : والآيات التي تتحدث عن هذا الميدان تأتي مقرونة باليابسة لنفس الغايات والأهداف المادية والعقلية .

ـ ({أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم} ﴾. (سورة الحج : الآية 65).

ويشير «التسخير» في الآية السابقة إلى وحدة الميادين الرئيسة الثلاث والتوازن القائم بينها، ومن مظاهر هذا التوازن أن الله يمسك ما في الفضاء من شمس وقمر وكواكب وما يمخر فيه من طيارات وصواريخ وحاملات قنابل ذرية أن تقع على الأرض، ولكن هذا الإمساك ليس مطلقاً فقد تقدر الإرادة والإذن الإلهي سقوط بعض النيازك والنجـوم والطائرات والصواريخ ولا ندري مصير هذه الأسلحة النووية والأقمار الصناعية التي تحمل الدمار .

**ويقدم القرآن كذلك بعض التفاصيل التي توجد في كل من الميادين الثلاثة الرئيسية للتسخير ومن أمثلة ذلك :**

والذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾. (سورة الزخرف : الآيات 9 - ١٤).

ـ «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخـرنـاهـا لكم لعلكم تشكرون﴾. (سورة الحج : الآية 36، 37).

«وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير». (سورة الأنبياء : الآية 79). - «إنا سخـرنـا الجبال معـه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كل له أواب». (سورة ص : الآية ۱٨، ۱۹). وتحذر فلسفة التربية الإسلامية تحذيراً شديداً من الخروج على ـ علاقة التسخير ـ مع الكون والخروج بها عن أهدافها وغاياتها. لأن الخروج على هذه الغايات والأهداف

يجعل علاقة التسخير تنقلب «على» الإنسان بعد أن كانت له». فالريح المسخر «لـه الإنسان والذي تدرج في الاستفادة من تسخيره ابتداء من تنقية حبوب القمح في الغربال البدائي، ومن طحن هذه الحبوب في الطاحون الهوائي، هذا الريح ينقلب تسخيره وعلى ، الإنسان في البر والبحر ويتحول إلى عواصف تدمر البيوت والمنشآت وتغرق السفن ويسقط الطائرات . والماء المسخر «له الإنسان والذي تدرج في الاستفادة منه كذلك قد ينقلب تسخيره «على» الإنسان فتفيض الأنهار وتعصف البحار والمحيطات والأمطار فتكتسح ما في طريقها من المنشآت والكائنات . والقرآن يورد الأمثلة لذلك منها:ـ

"وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية. وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة. فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية. إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية». (سورة الحاقة : الآيات 6 ـ ١٢).

ونحن ـ اليوم ـ نرى آثار الخروج على ـ علاقة التسخير في الحضارة المعـاصـرة في ميادين العلوم، والتكنولوجيا الذرية والهيدروجنية وعلوم الفضاء وهي تتحول على يد الإنسان الذي لا يهتدي بـ - علاقة التسخيري إلى أهوال وأخطار مسخرة «على» الإنسان تنذر بتدمير حياته كاملة على الأرض بدل أن تكون «مسخرة له» ترقى به إلى الرسوخ في معرفة الله، والتنعم بنعمه .

**وليسهل على الإنسان ممارسة علاقة التسخير بالشكل الذي تطرحه فلسفة التربية الإسلامية أمده الله بالمؤهلات والقدرات التي تمكنه من إقامة هذه العلاقة المشار إليها. وهذه المؤهلات هي:**

**المؤهل الأولى**: أن الله منح الإنسان القدرة على تسخير الكون ومنحه منزلة الخلافة على الأرض.

**والمؤهل الثاني:** أن الله أمد الإنسان بقابلية التعلم والقدرات التي تمكنه من كشف أسرار الكون وقوانينه وفهم مكوناته وعناصره وهذه القدرات هي ما أشار إليه القرآن حول تعليم آدم الأسماء كلها، وأنه علم الإنسان ما لم يعلم، وغير ذلك.

**والمؤهل الثالث:** هو تناسق تكوين الإنسان مع طبيعة هذه الخلافة. فالله سبحانه فطر ما في السموات والأرض كوحدة متناسقة تؤدي وظائفها طبقاً للتصميم المذكور. والإنسان وحـده هو الذي يملك حرية الانتظام هذا التصميم الكبير أو الخروج عليه. ولكنه حين ينتظم يسود وجوده الأمن والتقدم وتتناسق حياته مع القوانين التي توجه العوالم المحيطة به ويتوفر له اداء وظيفته في الاستخلاف وينال الجزاء الأوفى. وحين يخرج على هذا الخروج ضنكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة .

ولكن تحقيق ـ علاقة التسخير ـ يحتاج إلى جدية صادقة صائبة في البحث والتطبيق أما الحديث عنه بدون عناء وبدون إعطائه ما يستحق من الطاقات العقلية والنفسية والجسدية فهو مضيعة للوقت "**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلناه**" (العنكبوت: 69 - ۱۲۷).

ويتكرر الحديث في سورة الأنعام وغيرها عن أن القدرة على ممارسة علاقة التسخير والربط بين آيات الكتاب وآيات الكون هي التي تفرز اليقين الكامل، فإذا لم تحدث هذه القدرة فلا فائدة من اكتشاف آيات الكون ولا فائدة من تلاوة آيات الكتاب .

ومن الحق أن نقول: إن مؤسسات التربية الإسلامية ـ منذ قرون ـ قد عطلت «علاقة التسخير» وعطلت «المظهر الكوني» للعبادة، وفقدت الإحساس بخطورة الذنب الذي اقترفته حين عطلت هذه العلاقة وقعرت مفهوم الذنب على الجوانب الدينية والأخلاقية وبررت للمسلم جميع أشكال القصور والذنوب التي اقترفها في ميادين «المظهر الكوني» للعبادة .

وفي العصر الحديث لما تستطع المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي الحديث أن تستوعب المفهوم القرآني لعلاقة التسخير لأن هذه المؤسسات ما زالت تقتصر على تلقين الدارسين مظهر الإعجاز اللغوي والأدبي الذي توصل إليه علم «الآباء»، وتنظر بحذر وريبة شديدين إلى أية دعوة للنظر في مظهر الإعجاز العلمي للقرآن الذي يشكل إعجـاز العصر.

**ولقد أدى عجز هذه المؤسسات عن القيام بواجبها المذكور إلى مضاعفتين اثنتين:**

**المضاعفة الأولى،** أن هذه المؤسسات لم تستطع ـ وما زالت لا تستطيع ـ أسلمة التربية والمعرفة الكونية التي بدأت تفد إلى العالم الإسلامي في مطلع العصر الحديث . وتركت الباب مفتوحاً لنماذج المؤسسات التربوية الأوروبية لأن تقوم وتنتشر وتقدم العلوم الكونية عارية من علاقة التسخير ـ موجهة بـ (علاقة قهر الطبيعة والسيطرة عليها) وبذلك أخذت التربية في العالم الإسلامي تشارك التربية الغربية نقائصها في هذا الميدان، وصار التعليم في هذا العالم يخرج «مستهلكين» يقلون عن الخريجين في الغرب بأنهم «غير منتجين». فأدى ذلك كله إلى امتداد مفاهيم الصراع والاستهلاك واللادينية وانقلبت التربية إلى عامل من عوامل الاضطراب بدل أن تكون من عوامل الخير والاستقرار .

**والمضاعفة الثانية ؛** أن الاقتصار على العلوم الدينية في مؤسسات التربية الإسلامية والانشقاق بين العلوم الدينية والعلوم الكونية في المؤسسات التربوية الحديثة قد أدى إلى عقم كلا النظامين من التربية في العالم الإسلامي ومنع ولادة الإيمان وإخراج أمة المؤمنين لأن الإيمان يهبه الله لمن تزاوجت في نفوسهم «الحقائق الدينية» مع «الحقائق الكونية» وسنة الله أن يخلق من كل زوجين اثنين .

وبهذا التصور اندفع الجيلان الأولان من السلف في ميادين العلوم الكونية اندفاعهم في ميادين الجهاد وأعطوا هذه العلوم ما تستحق من المال والجهد والبحث والتنقيب عن العلوم أينما كان مصدرها . حتى إذا دخل عليهم الانحراف في استعمال أجهزة الوعي ـ السمع والبصر والعقل ـ على أيد أمثال المعتزلة وعلماء الكلام فرقوا بين هذه الأجهزة وزجوها فيها لا اختصاص لها ولا فائدة منها .

**4 ـ علاقة التسخير وعلاقة الصراع مع الطبيعة في الفلسفات التربوية المعاصرة :**

لعل من أكبر الأخطار التي تمثلها ـ فلسفات التربية المعاصرة ـ أن هذه الفلسفات بتأثير الدارونية الاجتماعية–

قد خرجت بعلاقة الإنسان مع الكون عن مفهوم «التسخير وقلبتها إلى ـ علاقة الصراع والسيطرة على الطبيعة ـ حيث يصارع الإنسان الطبيعة للسيطرة عليها وانتزاع ثرواتها دون هدف ولا غاية إلا هدف الاستهلاك والاستمتاع الدنيوي . وتنطلق الصيحات المتكررة من عواقب هذا التصور الخاطىء، خاصة بعد تقدم ـ علم النبيؤ - (Ecology) ومن أمثلة هذه

النداءات التحذيرية الكتابات المتكررة لأمثال ـ رينه دوبوا ـ ومما قاله في هذا المجال :

«ولن نستطيع تغيير العالم ما لم نقصي من عقلنا الجماعي المفهوم القائل : إن أهداف الإنسان هي قهر الطبيعة وإخضاع العقل الإنساني. والوصول إلى تغيير هذا الاتجاه لن يكون أمراً سهلا لأن السعي للسيطرة على الطبيعة وقيام تنمية غير محدودة يثيران جواً يكاد يكون مسكراً، بينها الإيحاء بالاقتراب من الاستقرار يخلق حالة من التبلد. ولهذا السبب فإننا لن نقدر على تغيير طرائقنا إلا إذا تبنينا أخلاقاً اجتماعية جديدة ، بل ديناً اجتماعياً جديداً. ومهما كان شكل هذا الدين الجديد فإن أصوله يجب أن تكون على وفاق وتناسق بين

الإنسان والـطـبيعـة بـدل الانـدفـاع المتهور للسيطرة والإخضاع»(۱)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Rene Dubos, So Human An Animal, (London: Sphere Books Ltd. (1) 1968) P. 19

ولعل من الموضوعية أن نقول إن العقل الغربي الحديث قد أبدع في اكتشاف قوانين الكون، وخصائص . مكونات هذا الكون، وأبدع كذلك في تحويل هذه القوانين إلى تطبيقات علمية وتكنولوجية، ولكنه أخطأ في تفسير علاقة التسخير ـ وضل كثيراً عن أهدافها وغاياتها بسبب الظلمة الفكرية التي رعتها كنيسة العصور الوسطى ودفعت بالعقل الغربي في ميادين آيات الآفاق والأنفس دون بصائر من آيات الكتاب . ومع تقديرنا واحترامنا للجد والمعاناة الشاقة والصبر على متطلبات البحث والدراسة التي اتصف بها العقل الغربي والتي انتهت بأمثال رينه دوبوا، وأبراهام ماسلو إلى نقد مفهوم الصراع مع الطبيعة، وإلى الاقتراب من التفسير الإسلامي ، ، وخرجت بأمثال بوكاي ورجاء جارودي موریس إلى نور الإسلام، فإننا نصارح العقل الغربي بأنه قد آن الأوان له لأن يتخلص من العقد النفسية التي قيدت عقول أسلافه في العصور الوسطى وجعلتهم ينظرون إلى الإسلام تلك النظرة السلبية التي جانبت الموضوعية. وإنه لمن الازدراء للفكر وأهله أن يبقى الفكر وأهله مستأجرين لأهواء أصحاب المال وأهواء الساسة وأن تتشكل مواقف المفكرين إيجاباً وسلباً طبقاً للمصالح المتلونة المتقلبة . صحيح أن الحياة الاجتماعية والمستوى الحضاري الأقطار الإسلامية المعاصرة قد أسها في خلق الصورة المشوهة

للإسلام في نفس الغربي. صحيح أن العقلية المعاصرة لأجيال المسلمين تثير الاشمئزاز وهي تلقي تبعة تخلفها على غيرها ـ ولا تغير ما بأنفسها ـ لتتخلص من هذا التخلف . ولكن ليس من الضرورة أن يكون تخلف المسلمين الحاضر سبباً في الاستنتاج والحكم بتخلف الثروات الفكرية والعقائدية عندهم. وأنه لمن العار أن يقتصر اهتمام العقل الغربي على شهود الثروات المادية المخزونة في باطن الأرض العربية والإسلامية أو الكائنة فوقها ثم لا يبحث في الثروات الفكرية والعقائدية المخزونة في أسفارها خاصة وأن حاجة الغرب إلى هذه الثروات الفكرية والعقائدية أشد من حاجته إلى الثروات المادية . إن العقل الغربي يظلم نفسه ومستقبل أجياله، ويظلم القرآن ويظلم رسول الإسلام حين يجعل الإسلام ديناً قومياً مختصاً بالعرب، أوديناً آسيوياً أو افريقياً يندرج في قائمة الأديان الشرقية. فالصفة العالمية واضحة تمام الوضوح في رسالة الإسلام وسيرة نبي الإسلام. والغرب يظلم نفسه أكثر، ويظلم الإسلام أكثر فأكثر حين يتصور أن العلاقة بينه وبين الإسلام علاقة عداء مستمرة، فالقرآن قد أطلق اسم أسلاف الغرب ـ من الروم ـ على سورة من سوره وبدأها بالبشارة بانتصار الروم الذي سيؤدي إلى فرح المؤمنين بالإسلام. ورسول الإسلام يبشر المسلمين ـ كما ورد في

لسيرة النبوية ـ بأن صهيب أول ثمار الروم. وهو يشيد بإيجابيات الغرب ويوجه المسلمين إلى مصادقتهم حين يقول : «والروم ذات القرون، كلا هلك قرن خلفه قرن أهل صبر، وأهله أهل لآخر الدهر، هم أصحابكم ما دام في العيش خيره(۱) . وحين سأل أحد أصحاب النبي أي الجماعات عني بقوله «الأمم والقرون» قبل المسلمين وهل هم فارس والروم : أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم: «وهـل النـاس إلا أولئك (٢) .

وفي حديث آخر قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تقوم الساعة والروم أكثر الناس. فقال له عمرو:أبصر ما تقول : قال : أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم أحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم وخامسة حسنة جميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك»(3) .

إن العقل الإسلامي يرى في الغرب الإيجابيات ويعترف لهم بها فهم أحلم الناس في مواجهة المشكلات، وأسرعهم نهوضا بعد النكسات، وأوشكهم كرة وانتصارا بعد هزيمة وخيرهم في توفير الضمان الاجتماعي للمساكين والأيتام والضعفاء. ويتوج.، هذه الصفات الأربع صفة خامسة جميلة هي تعشقهم للحرية والديموقراطية ومناعتهم ضد استبداد الملوك والرؤساء

إنني أؤمن بأن للعقل الغربي دوراً كبيراً في إبراز مظهر من أعظم مظاهر الإعجاز في القرآن وهو الإعجاز العلمي . ذلك أن مظاهر الإعجاز في القرآن تتوازى في البروز مع التطورات التي يمر بها المجتمع البشري ومع القـدرات والاستعدادات التي تتسم بها الأمم والأجناس .

ففي طور العلم للأمم التي تتصف بالنظر العلمي دور في إبراز الإعجاز العلمي للقرآن، كما كان للأمم التي اتصفت بطابع الفقه التشريعي دوراً في إبراز الإعجاز التشريعي فيه ، وكما كان للأمم التي اتصفت بطابع الفقه اللغوي والأدبي دوراً في إبراز الإعجاز اللغوي والأدبي فيه وهكذا .

فكل مظهر من مظاهر الإعجاز هو الجانب الذي يحدث ـ الجاذبية ويعقد صلات العشق والمحبة بين القرآن وبين الإنسان الذي يتصف بتفوق في فهم هذا المظهر. وإن هذا العشق والمحبة ليتصاعدان حتى يدفعان بصاحبهما البذل نفسه وماله في سبيل رسالة الإسلام. فحين كان القرآن يلامس مشاعر الإحساس بالجمال الأدبي في داخل ذلك كان يصنع فيه من الوله والانجذاب للقرآن ما تصنع النظرة أو الابتسامة من المحبوب الجميل في نفس العاشق المتيم. وفي كتابات أمثال موريس بوكاي ما يقدم مثلا على أن الغربي حين يشهد جانب الإعجاز العلمي في القرآن فإن هذا الشهود يصنع في نفسه ما صنعه القرآن في نفس العربي الذي عاصر بزوغ رسالة الإسلام.

**ثالثاً :**

**علاقة الإنسان بالإنسان**

**-علاقة عدل وإحسان ـ**

العلاقة التي تقيمها ـ فلسفة التربية الإسلامية ـ بين الإنسان والإنسان هي علاقة «العدل والإحسان». والعدل معناه الإنصاف. أما الإحسان فمعناه التفضل والزيادة في المعاملة الحسنة(1) .

ولقد حددت الأصول العقدية للتربية الإسلامية الإطار العام لهذه العلاقة عند قوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» (سورة النحل: الآية 90). وهذه العلاقة هي الترجمة العملية لـ «المظهر الاجتماعي» لعلاقة الإنسان بالله أي علاقة العبودية ـ. وفيما يلي تفصيل لكل من علاقة العدل وعلاقة الإحسان

**ا - علاقة العدل:**

العدل هو الحد الأدنى للعلاقات بين بني الإنسان . والوقوف عند هذا الحد والتحذير من تجاوزه إلى ما هو أدنى رخصة مقبولةحين تثور الخصومات وتقع النفـوس فريسة الانفعال والغضب والكراهية المؤدية إلى الجور والظلم والعدوان، أو حين تتحرك مشاعر الهوى والشهوات وتصبح النفوس عرضة للميل والتحيز .

والعدل دوائر تتدرج في سعتها حسب سعة دوائر الانتهاء البشري . وتبدأ الدائرة الأولى مع النفس :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم﴾. (سورة النساء: الآية 135).

ثم تليها دائرة الأسرة كعلاقة الأزواج بالزوجات، والآباء بالأبناء :

)فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة(. (سورة النساء : الآية 3) .

ثم تليها دائرة القربي: (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربي». (سـورة الأنعام : الآية ١٥٢).

وفي مكان آخر تجمع الدوائر الثلاث في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بها فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (سورة النساء : الآية 135).

ثم تليها دائرة الأمة التي ينتمي إليها الفرد أو الجماعة ذوي العلاقة. وفي ذلك يقول تعالى : )وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينها بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾. (سورة الحجرات : الآية 9).

وأخيراً تليها كلها الدائرة لإنسانية : وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. إن الله نعا يعظكم به إن الله كان سمعياً بصيراً﴾. (سورة النساء : الآية 58).

فالعدل مطلوب خلال هذه الدوائر المذكورة في جميع الأحوال والظروف بل هو مطلوب مع الأعداء وفي أوقات الخصومات وسوء الصلات. وفي ذلك يقول تعالى

يا أيها الذين امنوا كونوا قوامين الله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون). (سورة المائدة: الآية (۸).

ولا يجوز أن يحول دون - علاقة العدل ـ حائل وإن بلغت السلبية في التعامل حد اليأس من الطرف المقابل. وفي ذلك يقول تعالى :

فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير. (سورة الشورى: الآية (١٥) .

وشيوع علاقة العدل ورسوخها في علاقات الإنسان بالإنسان دلالة النضج والكمال والاستقامة وغيابها دلالة التخلف والنقص والمجتمع الذي يشيع فيه العدل هو مجتمع الواعين المنتجين للخير والمجتمع الذي يختفي منه العدل هو مجتمع - الأغبياء المعوقين - الذين يعيشون عالة أكلاء على غيرهم من الأمم : (ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) (سورة النحل: الآية 76).

وحين نتدبر واقع الإنسانية المعاصرة نجد بعض جوانب المثل الذي تورده الآية المذكورة أعلاه. إن المشكلة التي تعاني منها المجتمعات المعاصرة هي انها إما مجتمعات لا تأمر بالعدل ولا تسير على صراط مستقيم . وإما مجتمعات تأمر بالعدل ولكنها أيضاً لا تسير على صراط المستقيم .

فالمجتمعات القائمة في ما يسمى بدول العالم الثالث مجتمعات لا تأمر بالعدل ولا تسير على صراط المستقيم . فهي تعيش معيشة الأبكم الذي لا ينطق بعلم ولا يكشف عن معرفة، وهي لا تقدر على شيء وأينا تتوجه في سياساتها لا تأتي بخير، وهي كلة تعتمد على الدول المتقدمة ابتداء من الآلة التي تركبها أو تستعملها حتى الرغيف الذي تأكله .

وأما المجتمعات القائمة في ما يسمى بدول العالم المتقدم فهي مجتمعات تأمر بالعدل داخل حدودها وتمارسه إلى حد كبير، ولكنها أيضاً لا تسير على صراط المستقيم في شؤون العقيدة وجانب من شؤون الأخلاق. ولذلك فهي تجني ثمار تفوقها في ميدان العدل والإدارة في القدرة على أشياء كثيرة وإنجاز الكثير كذلك، ولكنها تعاني من نتائج انحرافها عن الصراط المستقيم في الجوانب التي أشرنا إليها .

والسبب في ذلك أن مجتمعات العالم الثالث تعيش علاقات قائمة على الظلم وتسلط الدكتاتورية وغياب العدل في علاقاتها وجفافه من نظمها التربوية وملء هذه النظم وشحن مناهجها وتطبيقاتها بالعصبيات العائلية والقبلية والاقليمية بينما تحرص مجتمعات العالم المتقدم على تلقين ناشئتها في مؤسسات التربية مفاهيم الديموقراطية وتطبيقاتها وتعويدهم رعايتها والحرص عليها وإشاعة العدل في علاقاتهم في ميدان الحياة الاجتماعية، ولكن غياب - علاقة العدل - من علاقات المجتمعات المتقدمة بغيرها من المجتمعات الأخرى جعلها تعاني من اثار هذا الغياب خارج حدودها الإقليمية .

ولذلك يظل نموذج المجتمع المتحضر الراقي الذي يجسد علاقة العدل في علاقاته الداخلية والخارجية مطلباً من مطالب التربية الإسلامية، وسمة من سمات الصفوة التي وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون). (سورة يريدها الله من عباده : الأعراف : الآية ۱۸۱).

وعلاقة العدل عامل رئيسي في شيوع الأمن والسلام لأنها تعبير عن الموضوعية في معالجة الأمور وعدم التحيز والذاتية. وحين تسود علاقة العدل لا يبقى أثر لعلاقات العصبية العائلية والعصبية القبلية، والعصبية القومية، والعصبية العرقية والعصبية الوطنية. ولذلك كان انتشار

الاضطراب والجريمة في علاقات الأفراد والدول في عالمنا المعاصر سببه رعاية التربية لهذه العصبيات وتجسيدها في فلسفات التربية ومناهجها وعلومها الاجتماعية وادابها وفنونها وثقافاتها. بل إن فشل المنظمات التربوية الإقليمية والدولية التي ترفع شعار «التربية من أجل السلام» سببه أن هذه المنظمات لم تتحرك ـ أو هي لم تتمكن الحكومات ـ لتنظيف نظم التربية ومناهجها وتطبيقاتها من آثار العصبيات المذكورة. والتي يصفها رسول الإسلام بأنها حصب جهنم ، وكان يهتف بأصحابه : دعوها فإنها نتنة ! !

إن بقاء هذه العصبيات في عالمنا المعاصر دليل على أن الإنسان لم يصل بعد إلى الحد الأدنى من العلاقات المقبولة بين الإنسان والإنسان .

**٢ ـ علاقة الإحسان :**

أما علاقة الإحسان فهي حسب فلسفة التربية الإسلامية ـ العلاقة الطبيعية التي يجب أن تربط الإنسان بالإنسان. وهي التي يجب أن تسود في الظروف العادية حين لا يكون هناك إحن ولا خلاف . ويجب على التربية أن تعمل على تنميتها وإشاعتها في حياة الأفراد والجماعات وأن من خا ن تبصرهم بميادينها وتفاصيلها وثمراتها. وأساس هذه العلاقات أن الإسان خلق-في أحسن تقويم – أي اسمى درجات التصور والسلوك في علاقاته مع الآخرين. ولكن اختلال التوازن الذي تحدثه مناهج التربية الخاطئة ومؤسساتها في قوى العقل والغضب والشهـوة والانحراف بهذه القوى عن أهدافها التي خلقت لها يهبط بالإنسان إلى درجة ـ أسفل سافلين ـ في علاقاته. مع الآخرين. وهي درجه تهبط عن مستوى العلاقات السافلة - التي تسود عالم الحيوان.

لذلك كانت وظيفة ـ التربية الإسلامية ـ هي العودة بالإنسان إلى أصل نشأته من خلال تربيته على الإيمان والعمل الصالح وبذلك تعود الصحة والتوازن إلى القوى المختلة ، ويتدرب الإنسان على استعمال هذه القوى استعمالاً صحيحاً وعلى صيانتها صيانة صحيحة وإلى هذه التحولات في طبيعة الإنسان كانت الإشارة القرآنية : «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾. (سورة التين).

فالعودة بالإنسان إلى منزلة ـ أحسن تقويم ـ إنما تتم من خلال تربيته على ـ علاقة الإحسان ـ التي تتكرر الدعوة إليها في مئات المواقع من القرآن الكريم خاصة قوله تعالى :

( خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين)

و (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) .

و(ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

- ولقد علق ابن كثير على هذه الآيات الثلاث بقوله :

«فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة»(1)

وتتدرج ـ علاقة الإحسان ـ أيضاً حسب دوائر الانتهاء البشري فتبدأ بالدائرة الأولى ـ دائرة النفس. ثم تليها دائرة الأسرة من الوالدين والزوجة والأبناء ثم الأقارب ثم الدائرة القومية ثم الدائرة الإنسانية .

ـ وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم». (سـورة الإسراء : الآية 7).

ـ «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبـالـوالـدين إحسانا . (سورة النساء: الآية 36).

«ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً». (سورة النساء : الآية 36).

وإذ أخذنا ميثاق بني إسرئيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إ حساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا إحساناً للناس حسنا . (سورة البقرة: الآية (۸۳)

ويفصل القرآن الكريم الميادين التي يجب أن تتجلى خلالها علاقة الإحسان تفصيلات يصعب حصرها. فالإحسان - مثله مثل العدل - مطلوب في جميع الأحوال والأوقات وفي الرضي والخصومات :

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في ' القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى . فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان . (سورة البقرة) الآية (۱۷۸ والإحسان مطلوب في مواجهة الملمات :

واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين). (سورة :هود: الآية (١١٥).

والإحسان مطلوب في الحرب والجهاد : - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع - المحسنين . (سورة العنكبوت: الآية (٦٩ ).

والإحسان مطلوب في القول والكلام : . (سورة - وقل لعبادي يقولوا التي هي الإسراء: الآية (٥٣).

والإحسان مطلوب حين يفلت رباط الأسرة ويحدث الطلاق:

والطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». (سورة البقرة: الآية ٢٢٩)

والإحسان مطلوب في الخصومات :

. ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك عداوة كأنه ولي حميم». (سورة فصلت : الآية 34). والإحسان مطلوب في مجادلة المخالفين في العقيدة :

- (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي احسن) . ـ (سورة العنكبوت : الآية 46).

والإحسان مطلوب في معاملة الأيتام :

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . (سورة الإسراء : الآية ١٧).

والإحسان مطلوب في جميع أشكال التعامل والعلاقات على مستوى الأفراد والجماعات وهو المقياس الذي يقاس حسن التصرف بالثروات والنعم :

ـ «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لنبلوهم أيهم أحسن عملا». (سورة الكهف : الآية 7) . وخلال التأكيد على ـ علاقة الإحسان بين الإنسان والإنسان ـ تقدم المصادر الإسلامية نماذج كثيرة جدالثمرات هذه العلاقات وآثار هيمنتها وانتشارها بين الناس وجزاء المحسنين. فتذكر أن من ثمراتها محبة الله والتمكين في الأرض والحكمة والعلم والسلام والأمن والمغفرة وغير ذلك .

ولا بد للتربية أن ترسخ هذه العلاقة في أصولها وأن تشيعها والعادات في أهدافها ومناهجها وتطبيقاتها وأن تلون بها جميع العلوم والفنون، ولا بد أن تمكنها من توجيه القيم العادات وأنماط السلوك اليومي في ميادين العلاقات والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والإدارية والسياسية وفي تطبيقات العلوم والاختراعات والكشوف حتى تصبح هذه كلها نعمة للبشرية وأماناً وتقدماً حقيقياً لا سببا في الشقاء والكوارث والخوف والطبقية والاستغلال. وغياب ـ علاقة العدل والإحسان ـ من واقع الحياة معناه في نظرة فلسفة التربية الإسلام شيوع علاقة أخرى دميمة هي ـ علاقة الظلم ـ. وتلفت الأصول الإسلامية الانتباه إلى خطورة هذه العلاقة وتحث على اتخاذ الوسائل اللازمة للتنفير منها والتعريف بآثارها الضارة .

فهي تذكر أن الظلم نوعان : ظلم للنفس مثل: الكفر والشرك والمعصية والبطر والترف والخنوع والذل. وظلم للآخرين مثل اغتصاب حقوقهم والتعدي على ممتلكاتهم والتعامل بالربا والاعتداء على الأنفس والأموال. ولكن أعظم مظاهر الظلم هي الإعراض عن رسالات الله والتكذيب

وتفصل الأحاديث النبوية في علاقة الظلم تفصيلاً دقيقاً وتجعل اثاره الدنيوية أعظم من الكفر في تدمير المجتمعات .

والدول، وإن الدول التي يشيع فيها الظلم إلى جانب الإسلام تتداعى قبل الدول التي يشيع فيها العدل إلى جانب الكفر. وكذلك تضيف الأحاديث النبوية أن النار مثوى الظلمة وأعوانهم من الإداريين والشرطة والجند وغيرهم، وإن .دعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب عز وجل : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»(1).

اما وأخطر آثار الظلم أنه يتسبب في مرض «انتفاخ الشخصية وتقلصها، الذي تتعاظم مضاعفاته العقلية والنفسية والاجتماعية .

أما مضاعفاته العقلية فهو يفرز أفكار (التطرف)، وأفكار و(الجمود). وليست عقائد التطرف اليساري والماركسي إلا رد فعل للظلم المبرح الذي زخر بها تاريخ المجتمعات التي شهدت ولادة هذه العقائد، وليست مفاهيم التطرف الخارجي والشيعي وعقائد التكفير والهجرة إلا بعض إفرازات علاقات الظلم التي شهدتها المجتمعات الإسلامية في الماضي والحاضر.

ومثله مفاهيم والجمود، التي مثلتها العقم الفكري ، وعدم الفاعلية الاجتماعية، والقعود عن العمل وتحمل

المسؤولية في فترات مختلفة من تاريخ المجتمعات في ا الماضي والحاضر.

وأما مضاعفاته النفسية فهو يفرز نوعين من البشر: نوع يحمل مشاعر التطرف ويندفع بما يشبه الانتحار، ونوع يتحنط في أكفان الجمود ويموت عقلياً ونفسياً بانتظار المحت الجسدي . وأما مضاعفات الظلم الاجتماعي فهو يعزز نوعاً من البشر إذا كانوا في موقع القيادة «تفرعنوا» وانتفخوا وتعاظموا وتعدوا حدود الإنسان، وإذا كانوا في موقع التبعية تصاغروا وتقلصوا ورضوا بالهوان . وإذا تفشى الظلم في شعب معين أو أمة معينة شاعت فيه مضاعفات مرض «انتفاخ الشخصية وتقلصها، وتحدرت مع العادات والتقاليد وتفشت في اللغة والثقافة والعلاقات وصارت جزءاً من التراث المتحدر مع الأجيال وأفرزت نماذج بشرية تبالغ في المدح والمداهنة إذا تكلمت، وتبالغ في العجرفة إذا تسلطت، وتبالغ في الصغار إذا استضعفت، واتصفت بالتردد والجبن وعـدم القدرة على اتخاذ القرارات وعدم القدرة على تحمل المسؤولية، وعدم القيام بالواجب، وشاع فيها عدم الاقدام والمبادرة ، وقتلت فيها روح المغامرة، وشاع فيها الغش والخداع والعجز صفات العقم الاجتماعي .

والأخلاقي والإنتاجي . ولذلك تلجأ الدول الغازية والمستعمرة إلى مساندة الأنظمة الدكتاتورية والمستبدة كوسيلة لتعطيل فاعلية الشعوب في المقاومة وطلب الاستقلال، ومتطلبات الإنتاج .

**۳ ـ علاقة العدل والإحسان وعلاقة الصراع والبقاء للأقوى في الفلسفات التربوية المعاصرة:**

تسير التربية الحديثة في الاتجاه المعاكس لعلاقة العدل والإحسان التي استعرضناها. فالتربية الحديثة تقيم علاقة الإنسان بالإنسان على أساس ـ الصراع والبقاء للأصلح ـ . والأصلح هنا هو ـ الأقوى ـ. وهذه العلاقة اشتقها فلاسفة التربية الحديثة من «الدارونية البيولوجية» التي ترجموها فيها عرف باسم «الدارونية الاجتماعية». ويمكن القول أن لفلاسفة التربية في أميركا الدور الأكبر في إفراز هذه الدارونية التربوية، التي تعد الفرد لدخول معترك «الدارونية الاجتماعية» .

- ولقد بدأ دخول الدارونية إلى أميركا حين بعث دارون نفسه نسخة من كتابه ـ أصـل الأنواع ـ إلى صـديفه ـ أسـا جـراي Asa Gray ـ مـدرس الأحياء في جامعة

هارفارد. وبعد ان درس –– جراي ـ تلك النسخة نشر عنها في المقالات المجلة الأميركية للعلوم والآداب ممهدا الطريق لعدد من المقالات التي راحت تبجل الفكرة الجديدة أمام تهم الإلحاد والهرطقة .

وإلى جانب ـ جراي ـ ظهر عدد من المشايعين لفكرة الـتـطـور الـدارونـيـة مـن أمـثـال ـ إدوارد سلسبي Edward Silsbee - وجـون فسـك John Fiske \_. وإدوارد لفنجستون يومانز Edward Livingston Yomans

ثم انتشر الحماس لفكرة والتطور وانتقاء الأصلح » حيث وجد فيها كل فريق من فرقاء الصراع والتنافس في ميادين الحياة المختلفة مبرراً لممارساتهم وأساليبهم في التفوق والربح والانتصار ضد الفرقاء المهزومة والخاسرة. ولقد علق البروفسور ـ ريتشارد هوفز تادر ـ أستاذ التاريخ في جامعة كولمبيا (حتى عام ١٩٧٠) على هذا الحماس الأميركي للدارونية واستناد الأطراف المتصارعة عليها لتبرير ممارساتها بقوله :

«ليس من الضروري أن تكون الأفكار صحيحة ومنطقية حتى يتم قبولها. وإنما المقياس هو ملائمتها لخدمة الرغبات العامة الاجتماعية. وهذه من أبرز المصاعب التي.

يجب أن يواجهها مخططو التغير الاجتماعي»(1)

فلقد استند كثير من السياسيين والمفكرين الذين أسهموا في إدارة الحرب الأهلية الأميركية إلى الدارونية وتبنوها لتبرير الحرب التي أداروها وتسببت في هلاك الآلاف من أبناء . الشعب الأميركي، وقدموها للشعب باعتبارها عملية ضرورية لتقدم المجتمع الأميركي ووحدته وأنها إحدى مظاهر تطبيقات ـ الدارونية ونظرية الصراع بين الأحياء وبقاء الأصلح - فالذين هلكوا في الحرب هم الضعفاء وعناصر التخلف، والذين خرجوا منها منتصرين هم الأقوى والأصلح لدفع التقدم، وإن هذا هو قانون علمي حتمي ولا مجال لتجنبه.

كذلك وجد رجال المال والاقتصاد في الدارونية أصولاً تبرر ممارساتهم في ميادين التملك والاحتكار وجمع الثورة . ومن أبرز الناطقين بلسان هذا الاتجاه ـ في تلك الفترة ـ وليم جراهام هومنر ـ أبرز الدارونيين الاجتماعيين في أميركا . وكانت آراؤه الاقتصادية والاجتماعية تطبيقاً لنظرية الانتقاء

والبقاء للأصلح . وخلاصة آرائه في هذا المجال ما يلي :

۱ – تبرير التنافس الحر في الاقتصاد وبدون أية قيود . والذين ينجحون في جمع الثروة هم أفضل عناصر المجتمع . والذين يفشلون هم العناصر السيئة ولذلك لا تجوز الصدقة على الفقراء لأن معناها تكريس الضعف في المجتمع.

٢ ـ إن تنافس بني الإنسان في ميدان الثروة كتنافس الحيوان في جمع الغذاء ولذلك لا داعي للفقراء أن يلوموا الأغنياء وإنما هم مسؤولون عن عجزهم عن التكيف والنجاح في ميدان الصراع، لأن الحقيقة الأولى في الحياة هي الصراع من أجل البقاء ـ وأعظم مظاهر هذا الصراع هو توفير رأس المال والثروة .

3 ـ إن أصحاب الملايين هم زهرات الحضارة وورودها الباسقة، وهم العناصر الصالحة المنتقاة خلال عملية الصراع ومن أقواله في ذلك :

«إن المليونيرات هم حصيلة الانتقاء الطبيعي الذي يعمل في المجموعة الإنسانية كلها لالتقاط أولئك الذين لديهم متطلبات الانجاز لعمل معين .. ولأن المليونيرات يختارون بهذه الطريقة ـ فإن الثروة التي يملكونها هم أنفسهم أو يعهد إليهم باستثمارهـا ـ تتكاثر وتزداد تحت أيديهم.. إنهم بإنصاف - العناصر المنتقاة ليكونوا وكلاء المجتمعات في عمل معين صحيح انهم يتقاضون أجورا عالية ويعيشون حياة مترفة ولكن الصفقة هي صفقة رابحة بالنسبة للمجتمع .

٤- لما كانت الحيوانات - في نظرية دارون - غير متساوية وإن أفضلها أقدرها على التكيف مع متطلبات البيئة.فكذلك أفراد الجنس البشري هم مختلفون. وأفضلهم هم أقدرهم على التكيف خلال عملية - الصراع من أجل البقاء - ولذلك كانت المساواة فكرة خاطئة تكرس التخلف والمرض في المجتمع. أما حرية الصراع فهي تولد الشجاعة والتدريب والذكاء والعمل .

ولقد تأثر بـ وليم جراهام صومنر عدد كبير من الطلبة وتطبيقاتها.

وفي الفترة ۱۸۹۰ - ۱۹۱۵ تركزت نظريات الاقتصاد ضمن دائرة تأثير الدارونية الاجتماعية.

وكانت خلاصة آراء أمثال فرانسيس بوين وآرثر لاتام بري، وج. لورنس لافلن وفرانسیس وايلاند ما يلي : إن الإنسان مخلوق من الشهوات والرغبات وهو بشكل عام توجهه رغباته النفسية وقوى الصراع إذا كان حراً عادلاً ، وهو خلال معاناته النفسية من أجل الثروة يحول هذه المعاناة إلى أكبر منفعة لأكبر عدد من الناس ولكن قدرته هذه قدرة حساسة تحتاج إلى إطلاق حريتها في العمل في ظروف عادية لا تعيقها تدخلات الحكومات» (۱). كذلك امتدت آثار - الدراونية الاجتماعية – إلى شؤون الأخلاق ومظاهر الحياة الاجتماعية فكيفتها ضمن تصورها القائم على أن البقاء للأقوى. فالتقدم ـ بالنسبة إلى - جورج كاري ايجلستون - يحدث من خلال إطلاق حريات العمل وخلال هذه الحرية يطور الرجال الأقوياء طاقاتهم ويبلورونها في صناعات مثيرة من خلال سحق العناصر الضعيفة، وإلقاء العناصر غير المناسبة في النفايات، ورفع العناصر المستحقة إلى منازل القوة والازدهار والسياسية - بالنسبة إلى - ولتر باجهوت Walter Baghot - هي قتل الأكثر قوة للأكثر ضعفاً بالقدر الممكن، وهي قديمة قدم التاريخ

ولقد انتقلت جميع هذه المفاهيم الدارونية من ميدان النظرية إلى ميدان التطبيق واكتوت الفئات الفقيرة بهذه التطبيقات فأدى ذلك كله إلى ظهور من يسميهم - ريتشارد هوفز تادر بالمعارضين والمنشقين - الذين أنجبتهم الاضطرابات ومشاعر الحرمان التي اجتاحت أميركا في السبعينات والثمانينات والتسعينات من القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر بسبب مضاعفات التطبيق الداروني في ميادين الاجتماع والاقتصاد. فاجتاحت الأزمات الاقتصادية والاضرابات التي قادها - فرسان العمل ـ وحركة الساعات الثمانية ، وبدأ انتقاد الرق الصناعي الذي خلف الرق الزراعي، وهاجم المعارضون استغلال العمال ورخص الأجور، وقذارة أحياء العمال وتشغيل الزوجات والبنات الصغار وبدأ التحذير من تسرب أفكار الماركسية والاشتراكية التي ضربت أوروبا. ومن أمثلة ذلك ـ الدور الذي قام به ـ واشنطنون جلادين - حيث حذر القائمين على المجتمع الأميركي بأن الطبقات الفقيرة والمستضعفة سوف تتحد وتهاجم النظام القائم على الصراع والبقاء للأقوى طالما أنه يهددها بالفناء، وسوف يقوم قتال مروع بين العمل ورأس المال ودعا إلى المشاركة الصناعية بين أصحاب العمل والعمال كبديل للدمار الذي يتهدد المجتمع الأميركي . كذلك استند الماركسيون إلى نظرية الصراع في دعوتهم للعمال إلى تنظيم میدان بهذه شارد يتهم في من ـة صفوفهم والتصدي لأصحاب رأس المال، وقالوا أن كارل مارکس قد ذكر إلى - فردناند لاسال- Ferdinand Lassalle) بأن كتاب دارون هو أداة هامة ويخدم أفكاره كأساس للصراع الطبقي في التاريخ (۱).

والواقع أنه خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي وفي مطلع القرن العشرين كانت الولايات المتحدة هي - البلد الداروني . وإذا كانت بريطانيا قد قدمت - دارون - إلى العالم فإن الولايات المتحدة أعطت الدارونية دفعة سريعة وتقبلاً عاطفياً. فلقد منح دارون عضوية الشرف في الجمعية الأميركية للفلسفة عام ١٨٦٩ أي قبل أن تمنحه جامعته التي كان يعمل بها جامعة كمبردج - هذه الدرجة بعشر سنوات.

ثم ازداد انتشار الدارونية في أقطار الحضارة الغربية المعاصرة وتمسك المفكرون الدارونيون بالنظرية الجديدة وعملوا على تطبيقها في ميادين العلوم المختلفة (٢).

أما في ميدان التربية فقد كان تيار الفلسفة البراجماتية تخطيطاً علمياً للابقاء على مكاسب الدارونية ومعالجة

المضاعفات التي نتجت عنها في الاستياء والمعارضة من العمال ورجال الكنيسة، وذلك من خلال إعادة تشكيل عقليات المعارضين بواسطة - التربية - وتشكيل الفكر الداروني نفسه وتحويله إلى أشكال من القيم التي تمجد قيم العمل والانتظام في المعامل والاستجابة لقوانين العمل ولوائحه .

ولما كان ـ جون ديوي - أبرز فلاسفة البراجماتية فقد لعب دوراً بارزاً في تعديل مفهوم الدارونية التربوية وشكل مفهوم البراجماتية لتخدم المفهوم المعدل الذي طرحه وأهمية التعديل الذي قام به ديوي أنه مهد ـ من خلال التربية ـ إلى ظهور شكلين من أشكال الدارونية الاجتماعية : شكل يوجه التنافس داخل المجتمع الأميركي ويلطف فيه من حدة الصراع الاجتماعي المدمر وشكل ظل يعتمد مفهوم - الصراع وبقاء الأقوى - ويوجه السياسة الخارجية .

أما عن الشكل الأول فلقد قدم ديوي ما يمكن تسميته قناعات تربوية - تجعل أصحاب المنازل الدنيا من العمال وأمثالهم يقبلون بمنزلتهم ويحبونها وتمهد لأصحاب الطبقات العليا الرضى والقبول من أصحاب الطبقات الدنيا. ويقول ريتشارد هوفز تادتر - أن الصلة بين البراجماتية عند - جون ديوي - وبين تطور الكائنات عند دارون صلة قوية . ذلك أن ديوي قال إن العقل أو الفكر هو أداة التطور في العالم.

هو عملية بيولوجية تحدث داخل الطبيعة - ولا تاتي من خارجها- كما أن عمل الفكر والذكاء ليس مجرد التكيف السلبي وإنما هو عمل بيولوجي هدفه تطوير البيئة لتأمين بقاء الإنسان وتوفير الكفايات الاستهلاكية فالفكرة هي . خطة عمل متأصلة في الدوافع الطبيعية وهي إجابات عضوية .. فالعقل إذن مهما قيل عنه هو عضو للسيطرة على البيئة لتأمين الحياة. ومن هذا المفهوم يجب أن تستمد المفاهيم الدينية والأخلاقية محتوياتها، ومنها يجب أن تكتسب قيمها.

كذلك ناقش - جون ديوي - أفكار لاستر وارد(Lester Ward) وأفكار ـ كد ــ (Kidd)

واتفق معهما في الأهداف التي تقرر أن التقدم يحدث من خلال الصراع والحروب، وأضاف أن للفكر دوره في عملية الصراع والحروب من أجل البقاء والاستمتاع وبدون الفكر تبقى عملية الصراع مستمرة ولا تصل إلى أهدافها (١).

فيلسوف البراجماتية الثاني زميله-جون William James - - كذلك شارك - وليم جيمس

ديوي ـ نفس الآراء وقال إن التطور هو نتيجة إبداعات غير عادية أو نتيجة جهود شخصيات بارزة تلعب في التطور الاجتماعي نفس الدور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Richard Hofstadter, Op.cit., pp. 136-138. (1)

الذي تلعبه الكائنات القوية في نظريات التطور عند دارون - ومثل هذه الشخصيات تنتقى من قبل المجتمع وترفع إلى موقع التأثير لقدرتها على التكيف للمواقف الاجتماعية التي يولدون خلالها).

ولقد جاءت التطبيقات التربوية التي استندت إلى الفلسفة البراجماتية منسجمة مع هذه الدارونية التربوية حيث جرى تقسيم المؤسسات التربوية إلى نوعين من التعليم التعليم الخاص، والتعليم العام وهذا بدوره أفرز العلاقات الطبقية ومهد لقبولها نفسياً واجتماعياً حيث يبرر تسلم خريجي التعليم الخاص مناصب القيادة والتمتع بالثروة والممتلكات ويبرر إرسال خريجي التعليم العام إلى أماكن العمل والمصانع. كذلك عملت مؤسسات التعليم العام على تنمية علاقات العمل والإنتاج وتعميقها في نفوس الناشئة قبل دخول الحياة وليست النظم والقوانين المدرسية التي إلا تطبيقات لهذه العلاقة حيث الوعلم يمثل دور مراقب العمال - - Public Education – تنظم التعليم العام ، والمدير يمثل رئيس المصنع والطلبة يتدربون على مهارات العمال وانضباطيتهم وضمان أدائهم للعمل المطلوب منهم. ونظم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Ibid., p. 132. (1)

الغياب والحضور والامتحان والثواب والعقاب هي نظم المصنع او الدائرة التي سيعمل فيها الناشئة عند التحاقهم بمراكز العمل وفي جميع هذه الأحوال أهملت العلاقات الإنسانية الرفيعة إهمالاً كاملاً(1)

أما عن الشكل الثاني من الدارونية الاجتماعية والذي يوجه السياسة الخارجية - أو يحدد العلاقات مع الإنسان من خارج المجتمعات الأميركية والأوروبية فقد ظل قائماً على مفاهيم - الصراع والبقاء للأقوى.

فلقد وجدت المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية اللتين قادتا حركة التوسع والاستعمار في فكر دارون مبرراً لعمليات الابادة والقتل التي رافقت هذا التوسع . فما كتاب أصل الأنواع Origin of Species - دام - قد برر علمياً هلاك الأنواع الضعيفة لاستمرار بقاء الأنواع القوية فإن الشعوب الضعيفة يجب أن تزول لمصلحة الأجناس القوية ولتقدم الحضارة. وكان شعار هذا الاتجاه ـ كما يقول البرفسور ريتشارد هوفز تادر

وإن أول عمل يقوم به منشىء المستعمرات هو تنظيف الأرض من الحيوانات المتوحشة . وأكثر هذه الحيوانات إفسادا وأذى هو الإنسان المتوحش (۱).

كذلك وجد الساسة في الدارونية الاجتماعية سندا لسياساتهم. وممن مثل هذا الاتجاه عدد كبير من رجال الإدارة ومجلس الشيوخ والقادة العسكريين؛ منهم السيناتور البرت ت بفريج، وهنري كابوت لودج وجون هاي والرئيس ثيودور روزفلت ومما قاله السناتور بفريج

senAlbert :T. Beveridge)

إن الإله لم يقم بإعداد الشعوب الناطقة بالانجليزية آلاف السنين عبثا أو للإدارة الكسولة . لا ! إنما جعلنا سادة لتنظيم العالم ولإقامة النظام في كل مكان تحكمه الفوضى... لقد جعلنا نتكيف ونتطور في شكل دول حتى ندير الحكومات بين المتوحشين والشعوب الخرفة العجوزة (۲) . ومما قاله الرئيس ثيودور روزفلت

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Alexander Liazos, People First, (Bacon: Allyn and Bacon, Inc. (1)

1982) pp. 347-362. 171

Richard Hofstadter, Op.cit., p. 87. (1)

Ibid., p. 180. (Y)

في هذا العالم إن الأمة التي تدرب نفسها على حياة لا تتسم بالطابع الحربي هي أمة محتوم عليها بالزوال قبل الأمم التي لم تفقد مزايا الرجولة والمغامرة

ومما قاله الجنرال هومر لي Homer Lea) :)

إن العنف الذي يصاحب تطور الأمم واضح جلي ولا نعتذر بسببه لأن إخفاءه رفض للحقيقة، وتمجيده تقرير للواقع وليس هناك في الحياة ما هو غير عنيف إلا المثل الخيالية. فكلما زدنا أفراد الجماعة ونشاطها زدنا نسبة عنفهم» (٢ ) .

ولقد ساندت الكنيسة نفسها هذا الاتجاه الداروني في علاقات الإنسان الغربي بغيره من بني الإنسان، وكان بين رجالها من كانوا من الدارونيين الاجتماعيين. ومثال ذلك الكاهن جوسيا سترونج ـ الذي قال إنه طبقاً لصراع الأنواع وتفوق النوع الانجلو ـ سكسوني يظهر في أميركا نوع من الناس كبار الأجسام، أقوياء فارعي الطول. وقال إن العنصر الأميركي سوف يملأ القارة ويزحف نحو الأقطار الأخرى في أميركا الجنوبية وأفريقيا وما وراءها. وستكون

نتيجة هذا الزحف تفوقه والقضاء على الأجناس الأخري لأن البقاء للأصلح (۱).

ميادين الاستعمار - جون فسك John Fiske - الذي كتب فلاسفة الدارونية الاجتماعية الذين طبقوها في البشرية وأنه في المستقبل سوف ينتشر هو ولغته يقول إن العنصر الانجلو - سكسوني هو اصلح الأجناس ومن كرر هذه الآراء في عدد من المؤلفات (۲)) . وثقافته في متقدم مليء بالمدن الحديثة والمزارع ومظاهر التكنولوجيا . ولقد أربعة أخماس الكرة الأرضية وسوف يحيل أفريقيا إلى بلا ولقد ساندت التربية الحديثة هذه المفاهيم الدارونية في ميادين السياسة والاستعمار . فهي ما زالت تدرس تطبيقات الدارونية الاجتماعية في أقسام أصول التربية باعتبارها من الأصول التاريخية للتربية الحديثة . كذلك شكلت العلاقات الإنسانية في المناهج والكتب المدرسية طبقا لهذه الفلسفة فهي تركز في ميادين العلوم السياسية والاجتماعية على مفاهيم العنصرية والعربية

)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Ibid., p. 171. (1) Ibid., p. 171. (Y

Josiah Strong. Our Country: Its Possible Future and its Present (1) Crisis (New York: The American Home Missionary Society, 1885). pp. 174-175. John Fiske, The Destiny of Man. (Boston: Houghton Miffin Co., (Y) 1884). - Outlines of Cosmic Philosophy, Boston: Houghton Miffin Co., - 1874.

وما تفرزه هذه المفاهيم من مضاعفات سلبية في العلاقات بين الأمم والشعوب. وهي تبرر علاقات التنافس والصراع الذي استمده فلاسفة التربية من الدارونية الاجتماعية التي بنت العلاقات بين الإنسان والإنسان على أساس الصراع والبقاء للأقوى.

**٤ - العلاقات الإنسانية في نظم التربية في العالم الإسلامي المعاصر :**

من الموضوعية أن نقول إن المؤسسات التربوية القائمة في العالم الإسلامي المعاصر تجهل «علاقة العدل والإحسان) ولا تجسدها في مناهجها وتطبيقاتها، سواء المؤسسات الإسلامية التقليدية أو المؤسسات التربوية الحديثة.

أما بالنسبة للمؤسسات الإسلامية التقليدية فما زال مدار اهتمامها هو «الفرد) الذي يؤدي الشعائر وينجو في الآخرة. فالفرد هو المثل الذي يتكرر ذكره في الدروس والمؤلفات. أما «الأمة» التي تتكون من نسيج من الأفراد والقيم وشبكة علاقات إجتماعية تتوزع بين حدي العدل والإحسان فهذه اختفت باختفاء عصور الازدهار التربوي وحلول عصور الركود والمذهبية التي ورثت المؤسسات التربوية المعاصرة الكثير من نظمها ومناهجها. وحينما أرادت هذه المؤسسات إصلاح نظمها في القرن.

الحالي - أو الستينات منه على التحديد - اكتفت باستعارة البيروقراطية الغربية التي تصارع الجامعات والمؤسسات التربوية هناك للتخلص من آثارها في سلطة المنصب ناحية وبين وا الوظيفة، وفي إشاعة الطبقية بين المدرسين من الطلبة من ناحية أخرى وهي طبقية تفرزها طبقية الشهادات والرتب العلمية والوظائف الأكاديمية.

أما المؤسسات الحديثة التي قامت في العالم العربي والإسلامي - ابتداء - على النمط الأوروبي والأمريكي " فهذه افتقرت منذ البداية إلى علاقة العدل والإحسان وأقامت فلسفتها على الأساس الغربي الذي يركز على تنمية علاقات العمل والإنتاج - حيث المعلم يمثل دور مراقب العمال والمدير يمثل رئيس المصنع، والطلبة يتدربون على مهارات العمل والتعايش مع نظمه وتقاليده وفي جميع هذه الأحوال تهمل العلاقات الإنسانية الرفيعة إلا ما يقتضيه تسهيل إنجاز العمل وزيادة الإنتاج . ولقد انعكس فقدان - علاقة العدل والإحسان ـ من كلا النوعين من المؤسسات التربوية القائمة في العالم العربي والإسلامي على شخصية الخريجين من هذين النوعين من المؤسسات التربوية . فلقد اتسمت شخصية الخريج من المؤسسات الإسلامية بشكل عام - بأنه إنسان معطل الفاعلية يؤدي وظيفة.

(الرمز) أكثر من وظيفة (الإنسان العامل). وهو ليس له اختیار محدد إزاء مواقف الابتلاء الثلاثة لأنه في الغالب يأخذ بالاختيار الثاني من اختيارات القدر في قاعة الابتلاء. أي أنه يستسلم للشر ولا يتناول الخير ليصارع به الشر كما هو مطلوب في علاقة الابتلاء.

أما عن شخصية الخريج من المؤسسات الحديثة فهو يشبه الخريجين من المؤسسات الحديثة السائدة في العالم الغربي والمناطق التي تأثرت بأنماط التعليم الغربي. فهو في أحسن أحواله يكون إنساناً محايداً ، لا هو من أنصار القيم والمباديء، ولا هو من المعادين لها. ويطلق المختصون في التربية على هذا النوع من الخريجين اسم (Amoral) وتعرفه قواميس اللغة الانجليزية بأنه الشخص الذي لا يكون أخلاقياً (Moral) ولا يكون منحلا غير أخلاقي (Immoral). والسمة البارزة لهذا النوع من الخريجين هو العمل تحت أي لواء وفي ظل أية قيادة وفي كل موقع دون ولاء مسبق لفكرة أو مبدأ أو جماعة. وإنما ينغمس في العمل الذي يسند إليه، وينفذ التعليمات والأوامر دون اعتبار لاتفاقها أو تعارضها مع الحق والدين والقيم والأخلاق وهو لا يجد حرجاً في هذا السلوك المحايد ما دام يتقيد باللوائح والنظم وينفذ التعليمات والأوامر. فهو في الحقيقة - إنسان آلي Robot - أو هو يجسد نموذج الرقيق لعصر التكنولوجيا العلمية.

رابعاً :

علاقة الإنسان بالحياة

-علاقة ابتلاء –

۱ - معنى الابتلاء وأشكاله :

العلاقة التي تربط الإنسان بالحياة – حسب فلسفة التربية الإسلامية - هي علاقة ابتلاء. والابتلاء معناه الامتحان أو الاختبار أي اختبار مدلول العبادة بمظاهرها الثلاثة: الديني والاجتماعي والكوني فالابتلاء هو المظهر العملي لعلاقة العبودية التي مر ذكرها بين الله والإنسان والتي عرفناها بأنها : كمال الطاعة لكمال المحبة».

والحياة هي الزمن المقرر لهذا الابتلاء أو الامتحان :

( هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ) . (سورة الملك : الآية (٢). والأرض هي القاعة التى يجري فيها الابتلاء والاختبار

وما على الأرض من ثروات ومنتوجات وزينة هي مواد هذا وما على الاختبار وأدواته :. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم (احسن عملا) (سورة الكهف : الآية ٧).

وأبرز مظاهر هذه الزينة هي المال والذرية –

المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) . (سورة الكهف : الآية (٤٦) .

أما ميادين هذا الاختبار فهما ميدانان رئيسيان: الأول ميدان المال والممتلكات والثاني ميدان النفوس-

(لتبلون في أموالكم وأنفسكم). (سورة آل عمران : الآية ١٨٦).

وتنقسم أشكال الابتلاء إلى قسمين رئيسيين: الأول يضم مواد الاختبار التي يدرجها القرآن تحت اسم «الخير» أو الحسنات» أو «السراء». والثاني يضم مواد الاختبار التي يدرجها القرآن تحت اسم «الشر» أو «السيئات» أو «الضراء»: - ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون). (سورة الأنبياء : الآية (٣٥)

وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون

ويقدم القرآن تفاصيل القسم الأول ومواده التي. تندرج تحت اسم «الشر» أو «السيئات» أو «الضراء» ويسوق له آلاف الأمثلة منها الاختبار بالمصائب والمحن والخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والمحاصيل والثمار والاختبار بالحروب والهزائم والمرض والاضطهادات وغيرها .

ولنبلونهم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس). (سورة البقرة: الآية ١٥٥).

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض). (سورة محمد : الآية (٤) .

ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم . (سورة محمد : الآية ٣١).

إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) . (سورة الأحزاب الآية (۱۱)

إذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم). (سورة الأعراف الآية (١٤١)

كذلك يقدم القرآن تفاصيل القسم الثاني من الابتلاء ومواده التي تندرج تحت اسم و(الخير) أو «الحسنات أو «السراء»، ويقدم له آلاف الأمثلة ومنها الابتلاء بالثروة والجاه وكثرة الأبناء والاتباع من العشائر والأقوام والنصر والقوة، والمناصب والمكانة الاجتماعية والجمال والصحة وغير ذلك ؛ ويقدم القرآن تفصيلا لهذه الأنواع من الاتبلاء بالخير

فمن أشكال الابتلاء بـ «الخير» الاختبار بالقدرة والسلطان وعلو النفوذ :

فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني (سورة النمل : الآية (٤٠) .

المناصب والمكانة الاجتماعية : ومن أشكال الابتلاء بـ «الخير» الاختبار بالجاه وعلو ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في أشكال الابتلاء بالخير الاختبار بوفرة المراكب ما آتاكم . (سورة المائدة : الآية ٤٨) . ومن ووسائل المواصلات الفارهة والمنازل الفاخرة: فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين . إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين). (سورة المؤمنون: الآية ،(۲۹( (۳۰ (

ومن أشكال الابتلاء بالخير الاختبار بطاعة الله ومدى الالتزام بأوامره ونواهيه:

-) يا أيها الذين امنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد). (سورة المائدة: الآية ٩٤ (.

واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً و ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . (سورة الأعراف : الآية ١٦٣).

ومن أشكال الابتلاء بالخير الاختبار بالعقائد والاتجاهات :

وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم). (سورة آل عمران الآية (١٥٤).

ومن أشكال الابتلاء بالخير اختبار الاخلاص في حمل الرسالات الإلهية والتضحية في سبيلها:

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن). (سورة البقرة: الآية ١٢٤).

) ولقد اخترناهم على علم على العالمين. وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) . (سورة الدخان : الآيتان ۳۲ - ۳۳).

(ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم). (سورة محمد : الآية٤) وأخيرا فإن الإنسان «مبتلى بنفسه وتركيب خلقه مكونات شخصيته حيث جعل الله فيه القابلية للميل مظاهر الخير أو الميل إلى مظاهر الشر، ثم طلب إليه أن يأخذ نفسه و دائماً بوسائل التربية والتزكية التي تهيؤه للأخذ بمظاهر الخير والبعد عن مظاهر الشر

(وإنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليهم ). (سورة الإنسان الآية ٧٦):

(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح ن زكاها وقد خاب من دساها). (سورةلشمس ٧-٩ا):

الإنسان يعيش شكلي هذا الابتلاء ــ الابتلاء بالخير والابتلاء بالشر ـ في كل لحظة من لحظات عمره الدنيوي وفي كل عمل من أعمال الدنيا بشكل مزدوج. أي أنه في كل موقف ابتلاء يكون طرفاً مقابلاً لإنسان آخر يعيش الوجه المقابل من موقف الابتلاء. فالذين يختبرون - أفراداً أو جماعات يشاركهم في نفس الموقف أناس يختبرون بالفقر.

والذين يختبرون بالنصر في موقف ما يشاركهم في نفس موقف ما يشاركهم في نفس الموقف أناس يختبرون بالضعف الموقف أناس يختبرون بالهزيمة. والذين يختبرون بالقوة في الموقف مايشاركهم في نفس الموقف أناس يختبرونبالضعف ودنو منزلة.

. والذين يختبرون بالرئاسة والملك والقيادة في موقف ما يشاركهم في نفس الموقف أناس يختبرون بالتبعية والمرؤوسية والذين يختبرون بالعلم في موقف معين يشاركهم في نفس الموقف أناس آخرون يختبرون بالجهالة.

والذين يختبرون بالإيمان في موقف ما يشاركهم في نفس الموقف بالكفر.

وهكذا فالناس في كل موقف من مواقف الحياة زوجان متقابلان لعلاقة الابتلاء ـ أفراداً وجماعات وأمم . كل يختبر ويبتلى بالآخر ويتولد من هذا الابتلاء المتبادل أفعال الطاعة والمعصية، ومظاهر الصواب والخطأ، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة إذ يطلب إلى الأزواج المتقابلة أن تستجيب لأوامر الله وتوجيهاته فيما يخص دورها في موقف الابتلاء. فيطلب - مثلاً - إلى المبتلين بالمال أن ينفقوه فيها أمر الله ، بينما يطلب لها المبتلين بالفقر أن يحاربوه بالعمل الدؤوب.

والإنتاج المستمر، وأن يقابلوا كل معونة تقدم لهم . بالشكر والمودة وكل حرمان لهم بالرفض والمقاومة .

ويطلب إلى المبتلين بالنصر والفتح أن يتواضعوا وأن يستغفروا الله من مشاعر الغلبة والطغيان والاعتزاز بالنصر بينهما يطلب إلى المبتلين بالهزيمة أن يتبينوا أسبابها العقلية والنفسية والمادية - بالمقياس الإلهي - وأن يعالجوها بما أمر الله ه أن تعالج .

ويطلب إلى المبتلين بالرئاسة والملك والقيادة أن يتصفوا بالعدل والرحمة والشعور بالمسؤولية والتعفف، بينما يطلب إلى المبتلين بالتبعية والمرؤوسية أن يطيعوا فيها أمر الله وأن يعصوا فيما نهى الله دون خنوع أو ذل أو ملق .

ويطلب إلى المبتلين بالعلم أن يسعوا في نشره وتعليمه واستثمار تطبيقاته لخير الإنسانية، بينما يطلب إلى المبتلين بالجهل أن يسعوا في البحث عنه وتعلمه وتطبيقه .

ويطلب إلى المبتلين بالإيمان أن يبذلوا المال والنفس لإبلاغ الإيمان إلى المبتلين بالكفر. بينما يطلب إلى المبتلين بالكفر أن يطهروا نفوسهم وحياتهم منه ومن آثاره وأن يتلقوا أهله ـ بالقبول والرضى والشكر وهكذا . الإيمان ـ من - ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) . (سورة المائدة : الآية (٤٨).

(ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) (سورة :محمد : الآية ٤١١)

(ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيها أتاكم) . (سورة الأنعام : الآية ١٦٥).

وفي كلا الحالتين من الابتلاء يطلب إلى كل مبتلى أن يحافظ على - منزلة العبد الموحد - الذي يلتزم أوامر الله فيها يقتضيه موقف الابتلاء.

ويقدم القرآن قصصاً وحوادث لأناس امتحنوا بالخير فالتزموا ما يقتضيه موقف من عبودية وطاعة الله .من ذلك ما رواه عن سليمان عليه السلام حين ابتلاه الله بقوة السلطان والنفوذ في الأرض ووفرة وسائل التنفيذ والإنجاز : قال الذي عنده علم من الكتاب أنا اتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقراً . عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن ربي من فضل كفر فإن ربي غني كريم). (سورة النمل: الآية ٤٠). ومثله ذو القرنين الذي كان يرأس دولة احتلت مكانة القوة العظمى في الأرض فلما بلغ نفوذه مغارب الأرض ووجد شعوباً متخلفة لم يستغل تخلفها وجهلها وإنما نشر فيها الرشد والتقدم. وعندما بلغ نفوذه مشارق الأرض ووجد شعوباً

مستضعفة وضحية العدوان الهمجي المتكرر، لم يتخذ منهم سوقاً دولية للسلاح وإنما مضى في بناء ما طلبوه من سدود وحصون تقيهم العدوان رافضاً الثمن الذي عرضوه ومجسداً اخلاقية الدولة العظمى كما يريدها الله سبحانه وتعالى

( قالوا ياذا القرنين إن يأجوج وماجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما اتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال اتوني أفرغ عليه قطراً. فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. قال هذا رحمة فما من ربي)

(سورة الكهف : الآيات ٩٤ - ٩٨ .)

ومثله «يوسف» عليه السلام الذي امتحن بمحبة الوالد ونضرة الشباب وجماله مما جلب عليه حسد الأخوة وعدوان النسوة. وفي كلا الامتحانين التزم أوامر الله متحملا في ذلك ما يقتضيه موقف الابتلاء من ثبات وتضحيات . وفي المقابل يقدم القرآن قصصاً لأناس امتحنوا بالخير فطغوا وفشلوا وذاقوا وبال هذا الفشل والطغيان :

من ذلك قصة فرعون الذي كان يرأس دولة احتلت مكانة القوة العظمى في الأرض فاستخف بشعبه واستبد في

الداخل واشاع الفتن والحروب والدمار في الخارج فاذاقه الله وبال أمره وأبقاه مومياء محنطة ليكون لمن خلفه آية .

ومثله قارون - الذي كان من قوم موسى عليه السلام - والذي امتحن ببسطة العلم والجسم ووفرة الثروة فأصابه البطر وزعم ان ما ابتلي به من خير هو ثمرة علمه الظلم والتفنن في الترف والزينة فكانت النتيجة خسفاً لممتلكاته وهلاكاً لنفسه

ومثل فرعون وقارون - أصحاب الجنة - أي البستان الذين أقسموا أن يخرجوا على نهج سلفهم في البذل والإنفاق وأن يستأثروا بثمره ويغلقوا أمام الفقراء أبوابه فأرسل الله عليهم أسباب خرابه :

إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا من ليصر منها مصبحين ولا يستثنون. فطاف عليها طائف ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم. فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وغدوا على حرد قادرين. فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا

إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون). (سورة القلم: الآيات (۲۷ - (۳۲) .

والجنة - هنا - رمز للممتلكات ومصادر الثروة التي هي مظاهر الابتلاء بالخير. وهو رمز يختلف حجمه ونوعه باختلاف الأزمنة والأمكنة. فقد يكون في زمننا بلدا يموج بمصادر الثروة أو قارة تصبح بالخصب والازدهار الاقتصادي. بينما تعاني الأقطار الأخرى من نقص في الموارد أو قحط في المحاصيل أو وفرة في الفقراء والمحتاجين فيتداعى أهل الأقطار المزدهرة. إلى فرض القوانين واتخاذ الإجراءات التي تمكنهم من الاستئثار بما ابتلوا به من خير بينما يحرم المحتاجين من العمال والفقراء والطلبة في الأقطار الأخرى من القدوم والاستفادة منه هذا الخير. وهنا يطوف (عليهم طائف الرب) في شكل غزو خارجي، أو فتنة داخلية أو حرب مدمرة، أو تضخم في الاقتصاد أو كساد في الأسواق أو خراب في الإنتاج وتكون نتيجة ذلك كله رحيل الازدهار والثروة إلى قطر آخر ليبدأ دوره في الابتلاء .

هذا وهذان صاحبان( يبتلى) أحدهما بجنتين من الثمار والزرع بينما يبتلى» الثاني بالفقر والحرمان. وتقوم علاقات الاثنين طبقاً لمقاييس الثروة والجاه ويتصرف الغني مع الفقير حسب مقياس معين خلاصته( أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ) . ويقوم بينهم الحوار فيلعب الخيلاء والغطرسة برأس المبتلى.

بالخير ويتعالى ويتطاول إلى أن يقول : (ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن (خيراً منها منقلبا ) ويحذرالمبتلى بالفقر عواقب هذا البطر ويقول: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطقة ثم. سواك رجلاً لكنا هو ربي ولا أشرك بربي أحداً. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا ولدا ) . ويأتي عقاب الله في ثروته: (وأحيط بنقل فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً)

والابتلاء بـ «الخير» أعظم خطورة من الابتلاء بـ «الشر». وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم بقوله : - الأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء، إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة .

ويقول كذلك :

الأنا أشد عليكم خوفا من النعيم مني من الذنوب. ألا إن النعم التي لا تشكر هي القصة في القاضي. (٢)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)سورة الكهف: الآيات ٣٢ - ٤٣ .

(۲) كنز العمال، ج ۳، ص ٢٥٧ . الحتف 14

.

كذلك يقدم القرآن نماذجاً وأحداثاً لأفراد وجماعات يتفرعن امتحنوا بالشر ففشلوا وسقطوا وذاقوا نتائج سقوطهم من ذلك شعب فرعون الذين سمحوا الفرعون أن(يفترعن) ويستخف بعقولهم ويتلاعب بمصائرهم ومقدراتهم دون اعتراض ولا مقاومة.

فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . (سورة الزخرف : الآية ٥٤).

ومنها قصة قوم موسى الذين «ابتلوا برسالة الإصلاح وتكاليف الجهاد في سبيلها فأجابوا موسى .أن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون فكان فشلهم في الابتلاء بابا السلسلة من العقوبات التاريخية المتلاحقة . ومثل هذه القصص كثير .

٢-قوانين الابتلاء:

وهذان المظهران لعلاقة الابتلاء : مظهر الابتلاء بالخير ومظهر الابتلاء بالشر يتعاقبان في حياة الإنسان لحظة بلحظة طبقاً لقوانين مقدرة خلاصتها ما يلي:

القانون الأول ؛ لتتحقق علاقة الابتلاء يلقي الله في قاعة الحياة بمواد الابتلاء من مظاهر الخير والشر ثم يترك للعبد ثلاثة اختيارات :

الاختيار الأول أن يأخذ بالشر والاختيار الثاني أن يستسلم للشر والاختيار الثالث أن يتناول الخير ليدفع به الشر. وتحرص التربية الإسلامية على تربية إرادة المتعلم

للأخذ بالاختيار الثالث أي تناول الخير ليدفع الشر كأن به يزيل الكفر واتجاهاته بالإيمان ،وتطبيقاته، ويزيل المرض بالدواء. ويزيل الفقر بالعمل، ويدفع العدوان بالجهاد ويحارب الجهل بالعلم، والظلم بالعدل وهكذا، ثم تعريفه بمخاطر الاختيارين الآخرين : أي مخاطر مناحرة الشر أو الاستسلام له وتنفيره منهما.

القانون الثاني ؛ أن لكل حالة من أحوال (الخير) أو «الشر» زمن تحل فيه واخر تنتهى عنده ولذلك يجب على الإنسان وهو يعالج - الشر - أن ينتظر ويصبر حتى تسفر الحالة عن ضدها وينقضي أجلها كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار. فمن طلب النهار في أول الليل لا يحصل عليه بل إن ظلمة الليل تزداد حتى تبلغ نهايتها ويطلع الفجر ويحل النهار. ومثله الذي يعالج الجرح أو الطعنة ويطلب الشفاء، فإنه لا يحصل له الشفاء عاجلاً بل لا بد من تورم الجرح وارتفاع حرارته ثم يعقب ذلك الالتئام والشفاء ولو أنه أراد الشفاء قبل أوانه لم يحصل عليه ويصيبه الضجر والقلق. ومن شأن هذا القلق والضجر أن يدفعاه إلى التخبط في المعالجة فتفضي الحالة السيئة إلى ما هو أسوأ. وإلى هذا وجه الله رسوله حين اشتدت عليه حالة الابتلاء بالشر الذي مثله اضطهاد المشركين وعنتهم( والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ) . فكلما سجى الليل أى اشتدت ظلمته دل ذلك على اقتراب شروق الشمس وتألق الضحى. وكلما اشتدت حالة الابتلاء بالشر. دل ذلك على اقتراب حالة الخير وتألقها فالحالتان دوارتان متعاقبتان بتقدير وقوانين إلهية.

والقانون الثالث؛ إن الانتظار لانقضاء حالة الشر لا يعني الاستسلام للشر. فالله سبحانه يدين المستسلمين المستضعفين ويمتدح - المقاومين :

والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . (سورة الشورى: الآية (۳۹).  
وهو سبحانه يشجعهم على هذا الانتصار للحق ويعلن وقوفه إلى جانبهم ضد البغاة الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم). (سورة الشورى: الآية ٤١ - ٤٢) . لذلك لا بد للإنسان خلال الفترة التي يبتلى بها بالشر أن يعالج آثار هذا الشر ويتقي مضاعفاته وآثاره السيئة بكل الوسائل المناسبة مثلما يعالج ظلمة الليل ويتقي أخطارها بنور المصابيح وتعبيد الطرق ونشر الشرطة والخفر حتى ينجلي الظلام ويطلع الفجر ويحل النهار. ولو أنه أراد التخلص من الظلام ومضاعفاته دون نور المصابيح وتعبيد الطرق وتوفير

الحراسات الليلية لمانجا من الظلام والاخطار التي تنبعث خلاله، ومثله لو أراد التخلص من الجرح العميق ومضاعفاته دون استعمال الأدوية المناسبة .

والقانون الرابع ؛ أن الإنسان لا يحسن دائما اختيار الوسيلة المناسبة لمعالجة الشر فهو أحيانا - بقصد يختار أن يعالج الشر بشر مثله وأحيانا يختار الاستسلام. - للشر، وأحياناً يتناول خيرا ليس فيه التأثير اللازم لمعالجة الشر. لذلك فهو يحتاج إلى أمرين الأول نماذج للسلوك المطلوب خلال مواقف الابتلاء وهذه النمادج هي التي جاءت بها الرسالة الإسلامية والثاني حين يمارس الإنسان الاختيار الخاطيء عليه أن يسارع إلى مراجعته وتقويمه وتصويبه . وهذا التقويم هو «التوبة» التي يشجع عليها الإسلام ويجعلها أسباب محبة الله ورضاه

(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين). (سورة البقرة: الآية (٢٢)

٣- الابتلاء والاختلاف والدرجية :

يرتبط مفهوم الابتلاء في التربية الإسلامية بمفهوم آخر هو ـ الاختلاف والدرجية - ومعنى الاختلاف أن الله خلق الناس مختلفين في الاستعدادات والقدرات لينتج عن. ذلك اختلاف في المهن والصناعات .

فهناك أناس يغلب عليهم الاستعدادات والقدرات الفكرية. وأناس يغلب عليهم الاستعدادات والقدرات الصناعية. وأناس يغلب عليهم الاستعدادات والقدرات العسكرية، وأناس يغلب عليهم الاستعدادات والقدرات العلمية ..وهكذا وهم في هذه الاستعدادات متفاوتو القدرات: فمنهم من يستطيع بلوغ درجة الابتكار والإبداع ومنهم من يستطيع فهم المبتكرات وتحويلها إلى تطبيقات عملية. ومنهم من يقف عند محاكاة الآخرين واستعمال التطبيقات التي يبتكرونها .

أما الدرجية فمعناها أن الله جعل الناس درجات فيها مختلفون فيه . ويتحدد مستوى ابتلاء كل فرد طبقاً للدرجة التي وضعه الله فيها .

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم. إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) . (سورة الأنعام: الآية (١٦٥).

وهذه الدرجية أنواع هي :

ا - درجية في النبوة والرسالة : - تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات). (سورة البقرة: الآية ٢٥٣) .

٢ - درجية في الجزاء الأخروي:

. فمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله بما جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون). (سورة ال عمران : الآية ١٦٣ - ١٦٤ ) .

(ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون). (سورة الأنعام : الآية (۱۳۲).

أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . (سورة الأنفال : الآية ٤)

ولكل درجات مما عملوا . (سورة الأحقاف الآية (١٩).

ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى). (سورة طه الآية (٧٥ .

٣ - درجية في الإسلام :

ولا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً). (سورة النساء : الآية ٩٤ - ٩٥).

درجية في الفهم والعلم:

وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء . (سورة الانعام: الآية (۸۳)

درجية في المكانة والابتلاء:

(وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دينإلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي الملك علم عليم) . (سورة يوسف : الآية (٧٦ )

٦ - درجية في القيادة والتدبير

(ولهن مثل الذين عليهم بالمعروف وللرجال عليهن درجة ) . (سورة البقرة: الآية (۲۲۸٧)

- درجية في العطاء المادي والمعنوي:

كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من . عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا). (سورة الإسراء: الآية ٢٠ - ٢١) .

- درجية في المعيشة والمكانة الاجتماعية :

أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً. (سورة الزخرف الآية (٣٢).

وهكذا في جميع مظاهر الحياة.

ويلاحظ على كل من الاختلاف والدرجية أمور هي: الأول، أن الأساس في كل من الاختلاف والدرجية أنهما ابتلاء لا امتياز وتفوق أي أن أهل كل درجة هم ممتحنون بأهل الدرجة المقابلة ومسؤولون عن علاقتهم بهم وعما يعاملونهم به من خير أو شر فأصحاب القيادة ممتحنون بما يتهيأ لهم من الجاه والقوة ومسؤولون عن استعمالها لنصرة المظلومين وقهر الظالمين وإشاعة العدل والأمن والاستقرار. وأهل المال ممتحنون بما يجمعونه من الثروة وعروض التجارات، وهم مسؤولون عن الإسهام في الحياة الكريمة لأصحاب الدرجات الأخرى. وأهل العلم ممتحنون بعلمهم وهم مسؤولون عن الإسهام في محاربة الجهل وتوفير فرص التعلم لأصحاب الدرجات الأخرى. وهكذا في جميع الفئات المختلفة .

وأصحاب الدرجات الأعلى من هذه الفئات ممتحنون بتدبير أمور أهل الدرجات الأدنى ومسؤولون عن رعايتهم والإحسان إليهم والتواضع معهم ونصرتهم وإيوائهم والعدل في معاملتهم، فإذا خرجوا عن حدود درجية الابتلاء والمسؤولية وقلبوها إلى طبقية التسلط والامتياز والاستئثار والترف وقعوا في المعصية واستحقوا العقوبة.

وكذلك اهل الدرجة الأدنى هم ممتحنون بالتعامل مع أهل الدرجة الأعلى بالفهم والاتباع لا بالتقليد والانصياع وهم مسؤولون عن الإخلاص والنصيحة لهم وشكرهم فيما أحسنوا وطاعتهم في الحق مما أمروا ولكنهم كذلك مسؤولون عن مراقبتهم ومحاسبتهم إذا أتوا ما يخالف الأوامر والتوجيهات الإلهية. فإذا تخلى أهل الدرجة الأدنى عن مفهوم هذا الابتلاء وقلبوه إلى تبعية التقليد والمراهنة والنفاق والوصولية والنفعية والخنوع وقعوا في المعصية واستحقوا العقوبة.

والثاني، أن هذا الاختلاف في الاستعدادات والقدرات والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق. وإلى هذه الاستعدادات يشير قوله تعالى :

- ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . (سورة هود: الآية (۱۱۹).

أي خلقهم ليكونوا مختلفين في القدرات العقلية والجسدية والاستعدادات المهنية وفي الدرجات والمهن وفي الألوان واللغات والأجناس وليتحدر فيهم هذا الاختلاف جيلا بعد جيل وفي ذلك أسباب التكامل وإيجاد قنوات التعاون والتبادل، وليقضي الناس حاجات بعضهم بعضاً ويساعد بعضهم بعضاً وبذلك تشيع المودة بينهم وتتوثق روابطهم .

ولا يقف هذا الاختلاف عند الأفراد وإنما ينسحب على البيئات والأمم والأجناس والثقافات وأنماط التفكير فهناك أمم يغلب عليها طابع التأمل الفكري، وأمم يغلب عليها النظر العلمي، وأمم يغلب عليها الإحساس الفني، وأمم يغلب عليها التذوق اللغوي والأدبي وهكذا، ولقد ضرب مالك بن نبي - مثلا لهذا الاختلاف بكل من الرجل الشرقي والرجل الغربي. فذكر أن الرجل الشرقي يجلس التأمل الجبل أو السهل فيقوده التأمل إما إلى نظم قصيدة أو كتابة مقالة في جمال المنظر، وإما أن يتصاعد به التأميل ليصل إلى فكرة الخالق والخلق ثم ذكر الرجل الغربي الذي يجلس نفس المجلس فيقوده التأمل إما إلى تطوير التربية وإنشاء المزارع، وإما أن يتغلغل به التفكير إلى باطنها لاكتشاف ما تحتوي عليه أعماقها من معادن وما توفره من استثمار.

ولو أحسن الرجلان استثمار هذا الاختلاف لوجدا فيه أسباب التكامل والوحدة وتبادل الحاجات المادية والمعنوية بدل التنابز والصراع وتبادل التهم والتشهير بالنقائص .

**والأمر الثالث:** أن الاختلاف المشار إليه يعطي ثماره في جعل الحياة مليئة بالتنوع والتجدد مما يجعلها جميلة ممتعة غير حملة ولا رتيبة ما دامت تقترن بفهم علاقة الابتلاء.

والمسؤولية أمام الله . ولكن حين يغيب هذا الفهم فإن الاختلاف ينقلب سبباً من أسباب الخلاف والخصومات الفردية والأسرية والأممية والقارية والقطرية وهكذا .

**والأمر الرابع**، أن الاختلاف والدرجية المشار إليهما يعطيان ثمارهما في تعزيز المحبة والطاعة وتنظيم الجهود والتعاون، وتسخير قدرات البشر وتنظيمها وفي الإنتاج وشيوع الأمن والسلام ما دام الاختلاف والدرجية مقترنين بمفهوم الابتلاء والمسؤولية أمام الله . وهكذا كانت حال المجتمعات قادها الرسل والأنبياء والصالحين من الحكام والأمراء التي الذين أرسوا أسس الحضارة الإسلامية وقادوا فترات الإصلاح والتجديد من أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز ونورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي. وهذا هو الذي يتفق مع فطرة الخلق التي فطروا عليها (۱).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(۱) لا تقتصر هذه الدرجية على بني الإنسان وإنما تمتد إلى الكائنات كلها من الحيوان والنبات والجماد ولكن الدرجية فيها ذات سمة خاصة بها تتفق والأهداف التي خلقت من أجلها. إذ الأصل أن هذه الكائنات خلقت من أجل الإنسان وهي بعض عناصر التوازن في بيئته التي يعيش خلالها على الأرض: وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ) . (سورة البقرة: الآية ٢٩). أما الإنسان فقد خلق لعبادة الله كما مر . ولذلك اتصفت درجية الإنسان في الفكر والأعمال القائمة على حرية الاختيار. بينما اتصفت درجية =

٤- الدرجية والطبقية في الفلسفات التربوية المعاصرة :

قلنا إن الفلسفات التربوية المعاصرة تسير في الاتجاه المعاكس لعلاقة الابتلاء، وأنها تقيم علاقة الإنسان بالحياة على أساس - الصراع بين الأحياء وبقاء الأقوى .

ولقد صاحب هذا الفهم الخاطيء، خطأ آخر لظاهرة الدرجية - فانقلبت في الفلسفات المذكورة إلى ـ طبقية \_ متسلطة، ونفوذاً وثروة كما قدمنا لذلك في علاقة الإنسان بالإنسان. ونتيجة لذلك كله سادة علاقات الحسد والكراهية والريبة بين أصحاب الدرجات المختلفة. وبذرت بذور العصيان والفتنة وتبادل الاتهامات واللعنات وتتبع المخازي وأذاق الناس بعضهم بأس ،بعض، وشاع الصراع بين الطبقات وبين الشعوب وانتهى في فترات متعددة إلى الانفجار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الكائنات المشار إليها بأنها درجية التركيب والوظائف. ولقد لاحظ دارون هذه الدرجية في الفريقين .ولكنه خلط بينهما ولم يدرك الفرق القائم بينهما. ووقع من الخطأ منه ما وقع وبرر طبقية الاستغلال والاستمتاع تحت مقولة البقاء للأصلح . وجاءت تفسيرات الماركسية رد فعل مناقض للدارونية الاجتماعية ولكنها أيضاً كانت سطحية التشخيص لأن المجتمعات التي قامت على أساس الماركسية انتهت إلى الطبقية الرأسمالية نفسها .

الدموي وتدمير الاجتماع ،والحضارة وليست الانقلابات والحروب الداخلية والإقليمية والعالمية إلا أمثلة لهذه الانفجارات .

ولقد حاولت الفلسفات التى وضعت الإنسان في المكان الأول - منزلة المالك المطلق لا منزلة المسؤول الممتحن - أن تتفادى هذه المضاعفات والانفجارات المدمرة وأن تمد الإنسان - عن طريق التربية - بالمناعة اللازمة ضد أمراض الطبقية والطغيان، وعن طريق التنظيم والقانون فوضعت التشريعات التي تحد من ظهور الطبقات المستغلة، وأباحت الثورات التي تحد من سحق المحكوم واستغلال العامل والفقير، ولكنها لم تمنع حدوث المضاعفات التي أشرنا إليها .

فمثلاً بعد نجاح الثورات الاشتراكية في تقويض الحكومات وتقليل نفوذ الطبقة الرأسمالية الحاكمة قامت في المجتمعات الاشتراكية مشكلات أساسية تمثلت في قيام طبقة حاكمة جديدة استأثرت بالامتيازات والمكاسب وتحكمت في حياة الناس وحرياتهم كما حدث في الاتحاد السوفياتي وألمانيا الشرقية وبولندا وغيرها .

- وعلى الرغم من أن الثورة الثقافية التي شنها ـ ماوتسي تونج - استهدفت إيجاد تقاليد سياسية واجتماعية وثقافية تمنع.

قيام مثل هذه الطبقة فإن ما حدث بعد وفاته سار في اتجاه قيام الطبقة المذكورة (١).

ه ـ الابتلاء والفتنة : الفتنة:

1- يرتبط مفهوم الابتلاء بمفهوم آخر هو الفتنة ولقد عرف اللغويون الفتنة تعريفات متعددة خلاصتها أن هي الامتحان والاختبار المذهب للعقل أو المال أو المضل عن الحق. ولقد تكرر ذكر الفتن في القرآن الكريم في أربعة وخمسين موضعاً يستخلص منها جميعها أن الفتنة هي فشل في مواقف الابتلاء يؤدي إلى الوقوع في المعصية أو الخطأ أو الانحراف وأن آثارها لا تتوقف عند الذين يقعون بها وإنما تشيع وتنتشر وتؤثر في حياة الذين لم يواقعوها. وإلى هذا يشير قوله تعالى : - واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ) . (سورة الأنفال: الآية (٢٥). والأساس الذي يقوم عليه مفهوم ـ الفتنة ـ أن الإنسان - بدون تعليم وتربية - لا يفقه علاقة الابتلاء.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Alexander Liazos. People First, (Boston: Allyn and Bacon. Inc. (۱) 1982) pp. 74-75.

ولا حكمة هذا الابتلاء ولا قوانينه وما يرتبط به من الاختلاف والدرجية لذلك يضطرب سلوكه ولا يحسن التعامل مع مظاهر الابتلاء. . في مواقفه المختلفة فهو يعتبر الابتلاء بـ «الخير» إكراماً وتقدماً. - ويعتبر الابتلاء بـ «الشر» إهانة وتخلفاً :

(فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول رب أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول رب أهانن). (سورة الفجر: الآية (١٥١٦).

وهو في مواقف الابتلاء بالخير تستخفه الخيلاء والبطر وينتابه الغرور ويطلق الدعاوى الكافرة ويغفل عن نعم الله وما توجبه من الحمد والشكر والطاعة ويسند الخير إلى علمه وكسبه . وحين يمر في مواقف الابتلاء بالشر يتصاغر ويضمحل ويصاب بالقنوط وفي كلا الحالتين ينتهي إلى الوقوع في الفتنة.

ويصف القرآن هذه التقلبات في النفس والسلوك من قبل الإنسان المفتون في سور مختلفة من ذلك قوله تعالى:

- وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون). (سورة الروم الآية (٥٦).

لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإذا مسه الشرفيؤس قنوط .ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضر مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى. فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ. وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونا بجانبه الشر فذو دعاء عريض . (سورة فصلت : الآية وإذا مسه 49-51).

وهذا الاضطراب والجهل في فهم علاقة الابتلاء يحدث انفجارات مدمرة في ميادين العقيدة والأخلاق والاجتماع مثل الانفجارات التي تحدث في الأجهزة والآلات حين تستعمل بما يخالف القوانين التي صممت طبقاً لها. ولهذه الانفجارات في ميدان علاقة الابتلاء نتائج خطيرة :

منها أن الإنسان حين يتصور «الابتلاء بالخير» إكراماً من الله ودلالة رضاه فإنه يسترخي عن أداء واجبه في تناول الخير لدفع الشر، ويرضى عن جميع أعماله وممارساته، ويغفل عن مراقبة سلوكه وتقويم أخطائه ؛ فتقوده هذه الغفلة إلى اختيار مناصرة الشر والتعدي على حدود الله . وهذه حال كثير من الأفراد والأمم ممن يبتلون بالثروة والجاه والقوة والصحة والنفوذ والنصر وغير ذلك .

ومنها أن الإنسان حين يتصور «الابتلاء بالشر» إهانة وإذلالاً من الله ودلالة مقته وسخطه فإنه يقع فريسة الهوان.

والصغار ويضعف عن مجابهة الشر، ويقع فريسة الخور والعجز والسلبية والقعود عن العمل والمجاهدة، وكل هذا من مضاعفات الفتنة التى يكرهها الله ويعاقب عليها، وهذه حال كثير من الطبقات العامة، وأهل التبعية والتقليد والفقر والضعف والهزيمة وغير ذلك من مظاهر الابتلاء بالشر.

وتتنوع مظاهر الفتنة حسب تنوع المواقف والأدوات . فهناك فتنة العقيدة والفكر ؛ وهذه تشمل مظاهر الفشل في بلورة العقيدة والفكر ،الصحيحين، أو الفشل في حمل هذه مظاهر العقيدة والقيام بمسؤولياتها ومتطلبات الجهاد في سبيلها. وغالب ما ورد في القرآن الكريم من ذكر للفتن إنما يندرج تحت - فتنة العقيدة وتطبيقاتها ...

ومنها فتن المال والأولاد والجاه الناجمة عن سوء العلاقات مع هذه كلها ومثلها فتن النساء والرجال، وفتن الخلاف في الرأي والقتال، وفتن الاجتماع والأخلاق. وبالإجمال فإن ميادين الفتن تتوازى مع ميادين الابتلاء بمظهريه من الخير والشر.

ولقد فصلت الأحاديث النبوية في استعراض مظاهر الفتنة وميادينها تفصيلاً دقيقاً أفرد له مصنفو الحديث ـ من أمثال البخاري ومسلم ـ أبواباً خاصة عرفت بعنوان ـ باب الفتن وعلامات الساعة. وتشير الأحاديث الواردة ضمن هذه.

الأبواب إلى مواقف الفهم السلبي والتطبيق السلبي لمظاهر الابتلاء التي ستمتحن من خلالها أجيال المسلمين بعد فترة الرسالة في ميادين العقيدة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والحياة العسكرية والأخلاق العامة وما سوف تفرزه هذه السلبية في الفهم والتطبيق من انفجارات فتنية في ميادين الحياة المختلفة، وما سينتج عنها من مضاعفات التفكك والانقسام والتحلل في داخل الأمة الإسلامية، ومن هوان، وضعف أمام التحديات الخارجية كذلك توجه إلى السلوك الذي يجب اتباعه خلال انفجار هذه الفتن – لتجنب الأخطار التي سوف تنجم عن هذه الفتن في حياة الأفراد والجماعات . كذلك تشير أحاديث الفتن إلى أن ثورات هذه الفتن ليست أمراً حتمياً مفروضاً من الله تعالى وإنما هو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بانهيار التربية السليمة وشيوع الجهل. ومن توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الميدان :

يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرج . قيل يا رسول الله وما الهرج؟ فقال هكذا بيده فحرفها كأنه يريد القتل»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1. . هو القتل . وفي رواية أحمد جاء الجواب صراحة أن الهـرج (۱) البخاري، الصحيح، ج ۱، باب العلم، ص ۳۱ .

وبذلك تكون المشكلة التي تحدث الاضطراب في علاقة الإنسان بالحياة - أي علاقة الابتلاء ـ هي اختفاء التربية الصحيحة وشيوع التربية الخاطئة .

لذلك كله فإن من وظائف التربية أن تهيء للإنسان فهم علاقة الابتلاء والتعايش مع ظواهرها وقوانينها وأن تعمق ذلك كله في مشاعر المتعلمين وتجسده في سلوكهم في جميع المواقف والاتجاهات.

ومن الإنصاف أن نقول أيضاً إن المؤسسات التربوية الإسلامية المعاصرة لا تجسد هذه العلاقة في مناهجها ونظمها بسبب المفاهيم الجزئية التي ورثتها عن عصور الركود والتقليد المذهبي والتي جزات - علاقة الابتلاء ـ إلى مفهومين جزئيين متباعدين : مفهوم رأى من علاقة الابتلاء مظاهر الشر فحسب ولذلك قرر أن الحياة كلها «شر» ولا بد من الصبر عليها والزهد فيها وتركها لأهلها حتى يأتي أمر الله . وهؤلاء أوّلوا آيات القرآن والأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع وبعقيدة القضاء والقدر تأويلاً يدعم السلبيات المترتبة على هذا الفهم. فهم يدعون للاختيار الثاني وهو - الاستسلام للشر .

ومفهوم رأى من - علاقة الابتلاء ـ جانب الخير فقط . ولذلك أوّل أصحاب هذا الفهم آيات الكتاب والأحاديث التي تتحدث عن الخير تأويلاً يبرر الترف وحياة المترفين.

ولقد ترتب على كلا النوعين من الفهم أن شاع بين الجماهير المسلمة مظهران من الحياة مظهر يمثله - الأكثرية المظلومة ـ وهؤلاء اختار غالبهم الاستسلام للشر وعدم تناول الخير لدفع الشر، وأولوا المصطلحات المتعلقة بذلك تأويلا هذا الاستسلام ويبرره فقلبوا - مثلاً . يدعم معنى الصبر فجعلوه صبراً على الفقر والمرض والجهل والظلم والهزيمة والتخلف بعد أن كان صبرا على مقارنة هذه الشرور والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس (۱) ، وتعويضاً عن نقص العدد في المجابهة كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله fمع الصابرين (٢) . وقلبوا معنى «الزهد» وجعلوه عجز الفقراء والقاعدين عن العمل بعد أن كان ـ زهد الأغنياء - واستهانتهم بالمال في سبيل الحق وتضحية بالنفس لنصرة الخير. وقلبوا معنى «التوكل» وجعلوه تبريراً للكسل والعجز بعد أن كان ثباتاً بعد استكمال الاستعداد. وقلبوا معنى التسليم للمشيئة الإلهية أي قولنا وإن شاء الله فجعلوه تبريرا للتراضي وعدم الانجاز، بعد أن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1. سورة البقرة: الآية ۱۷۷
2. سورة البقرة: الآية ٢٤٩ .

كان تصمياً على التغلب على جميع العراقيل ما عدا «مشيئة الله » . والمظهر الثاني ويمثله - الأقلية المترفة - وهؤلاء ظنوا الخير» إكراما لا ابتلاء ولذلك وقعوا ضحية الترف وبرروا حياة المتعة والاستهلاك والتباهي بأشكال الزينة ومظاهر النعمة كما هو منهج قارون والقارونيين، وقلبوا معاني القرآنية والأحاديث النبوية . فابتغوا فيهما آتاهم الله الدار الدنيا ونسوا مطالب الآخرة، وأولوا معنى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده بأنه تبرير «الاستمتاع» والتفنن في الاستهلاك ونسوا أن الله يحب أن يرى أثر نعمته في البذل والإنفاق كما أراه كل من أبو بكر وعمر وعثمان وأمثالهم .

٦ - علاقة الابتلاء وعلاقة المتعة والاستهلاك في الفلسفات المعاصرة :

العلاقة التي تقيمها الفلسفات التربوية المعاصرة بين الإنسان والحياة هي - علاقة المتعة والاستهلاك . ونتيجة لهذه العلاقة أصبحت الوظيفة الرئيسية للتربية المعاصرة هي إخراج الإنسان المنتج - المستهلك.

ومع أن التربية المعاصرة قد نجحت إلى حد كبير في رفع كفاءة الفرد الإنتاجية والاستهلاكية إلا أنها لم تنجح في توفير المتعة المنشودة ،له وخلقت له بدلها مشكلات وأخطار

بيئية وصحية واجتماعية وسياسية تنذر بتدمير البيئة المحيطة . و بتدمير حياته .

أما عن به المشكلات البيئية فنحن نسمع من آن لآخر تحذيرات علماء البيئة (Ecologists) حول الأخطار التي تتهدد البيئة الطبيعية في الأرض قاطبة نتيجة لعمليات الإنتاج والاستهلاك المسرفة المفرطة. ومن هذه الأخطار أخطار الجفاف وخراب التربة. ففي صيف عام ١٩٨٥ نشرت مجلة فرنسية تقريراً مفصلاً عن الآثار البيئية التي تسببت بها شركات الأخشاب والسجائر والرز في إفقار التربة الأفريقية وإخلال التوازن في بيئتها مما أدى إلى الجفاف الذي ضرب القارة السوداء .

وتتوالى الدراسات المرعبة عن آثار التلوث ونفايات المصانع والشركات ونفايات الأطعمة في كل من قارة أوروبا وأمريكا، وعن آثارها على الحياة في الأنهار والسواحل والمحيطات والبحار حيث يخشى علماء البيئة أن يقضي على الحياة قضاء مبرماً .

ويصور بعض علماء البيئة أخطار المستقبل بشكل مرعب فيذكرون أن الغازات الصاعدة إلى الجو سوف تفسد الأوكسجين التي يستنشقه الأحياء وسوف تخل بتركيب الهواء نفسه، وسوف تؤثر في أشعة الشمس المتوجهة إلى الأرض.

فترفعها إلى درجة تتسبب في ذوبان كميات هائلة من ثلوج القطبين وتغرق مدن السواحل بينما يتوقع اخرون هبوط حرارة الشمس والعودة بالكرة الأرضية إلى العصر الجليدي . وكلا الحالتين تحمل أخطاراً حاسمة بالنسبة المستقبل الإنسان والحياة على الأرض(۱) .

وإذا أضفنا إلى هذا التلوث الناتج عن الصناعات المدنية ما تحدثه التجارب الذرية من إخلال في توازن البيئة ونقائها أمكننا أن نتصور أي خطر أفرزته مفاهيم الاستهلاك والإنتاج في علاقة الإنسان بالحياة وأدركنا الحاجة الماسة إلى مفاهيم التربية الإسلامية. فالذي يسميه علماء البيئة بالتوازن البيئي والأوضاع الطبيعية الملائمة للحياة على الأرض هو مظهر الاتقان والحكمة في التربية الإلهية لعوالم الإنسان والحيوان والجماد وهو بعض مظاهر معنى قوله تعالى رب العالمين.

لذلك كله لا غرابة أن يصف عالم البيئة الشهير - رينه حلقات البر دوبو - القائمين على التربية المعاصرة وإدارة حياة الإنتاج والاستهلاك بالجنون والجريمة. ومن أقواله في هذا الشأن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

\_«Fighting to Save the Earth from Man» in Education in a Dynamic (1) Society. Edited by Dorothy Westby-Gibson, pp. 115-118. from «Time Magazine», February 2, 1970, pp. 56-57, 59-63

يجب اعتبار أكثر الناس في أقطار المدينة الغربية وخاصة أمريكا المعاصرة - من الجانحين، لأنهم يتصرفون وكأن المقياس الوحيد للسلوك هو إرضاء رغباتهم وغرائزهم الآنية دون نظر إلى عواقب ذلك على الطبيعة والذراري. إن الكتب المدرسية تستنكر الملاحظة غير المسؤولة التي أطلقها لويس الخامس عشر : فليكن من بعدي الطوفان!! ومع ذلك فنحن نستغل الأرض وكأننا آخر جيل يسكنها، ونتصرف اجتماعياً - كأنما نريد أن نبرر أعمالنا السيئة بالتساؤل : وماذا صنعت ذريتي من أجلي؟

إن أنماط الحياة الشخصية الناجحة، وكل المدنيات الناجحة دعمتها نظم من العلاقات المنظمة التي تربط بين الإنسان وبين المجتمع والطبيعة وهذه العلاقات الأساسية ليست لرفاه الفرد فقط بل لبقاء الجماعات الإنسانية وهي تضطرب الآن بسرعة وعمق بسبب الحياة الحديثة التي نحياها . ولا يقتصر الخطر على اغتصاب الطبيعة وإنما يتهدد مستقبل النوع البشري» (١). . .

ويقول كذلك : مطلق بشكل شاكل تور کال «نحن نقطع الغابات باضطراد، ونغرق الصحارى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Rene Dubos. So Human an Animal, p. 135. (1)

بالمياه لإيجاد أراض زراعية جديدة. ولكنا من ناحية أخرى ندمر الحقول الخصبة لنبني فيها المصانع وطرق - الهاي ويه - والتجمعات السكنية دون اعتبار للمناظر الطبيعية والتاريخية ... في البداية قطعنا الغابات لإيجاد المزارع ثم أزلنا المزارع لنبني المدن والضواحي. وفي كل مكان لا نستعمل الأرض مأوى وحاضنة للثقافة الإنسانية وإنما كمصدر للاستغلال وسوق للبيع والشراء.

ومن نكاد نفقد استنشاق الهواء النقي في كثير من المدن. آن لآخر نرى أثر الملوثات في الخضار الورقية إلى درجة جعلتها غير صالحة للبيع. وهذا يقدم لنا مثلاً لما يمكن أن يفعل التلوث بجميع الكائنات الحية (1) .

ويأخذ على الأقطار النامية تقليدها للمجتمعات الصناعية دون عبرة فيقول :

وجميع المجتمعات التي تتأثر بحضارة الغرب تلتزم في الوقت الحاضر توراة «التنمية»، وتترنح في دائرة تشبه حلقات الدراويش - ونشيد هذه الدائرة : أنتجوا أكثر! لكي تستهلكوا أكثر ثم لكي تنتجوا أكثر! یال معال ہیں الفصام القيم الكروم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Ibid., p. 137. (1)

والإنسان لا يحتاج أن يكون عالم اجتماع لكي يدرك أن هذه فلسفة مختلة مجنونة. وأن تسارع التنمية لا يمكن أن يستمر طويلاً فضلاً عن الاستمرار الدائم(۱).

وأما عن المشكلات الصحية فلقد جلبت حياة الاستهلاك أمراضاً ومشكلات لم يعرفها الإنسان في الأجيال التي سبقت. وهي أمراض يتسبب بها الاستهلاك المفرط والكيمياويات التي تتسرب إلى الأطعمة عن طريق الأسمدة الصناعية ومواد الحفظ والهرمونات التي تخلط بغذاء الحيوانات والطيور التسمينها وتسويقها .

وأما عن المشكلات الاجتماعية فإن ـ علاقة الاستهلاك - قد تشعبت مضاعفاتها أكثر من أية مشكلات أخرى في ميادين الأخلاق والاجتماع والاقتصاد وفي حياة الأفراد والجماعات . ولعل أبرز المشكلات التي أفرزتها ـ علاقة - الاستهلاك - في حياة الأفراد هي كفاح الفرد الدائم لتحسين مصادر دخله من خلال التربية نفسها. فالمتعلم المعاصر يسلخ من بداية عمره حوالي ٢٥ عاماً على مقاعد الدرس ليدخل الحياة ويبدأ العمل. ثم يضطره التفاوت بين الدخل والنفقات إلى.

Ibid., p. 140. (1)

العودة إلى المؤسسة التعليمية زمناً يستنفذ الفترة الواقعة بين. الـ ٣٠ - ٤٠ من عمره تستنزف خلالها طاقاته العقلية والنفسية، ويستنزف المالكون للمؤسسات التعليمية دخوله الاقتصادية دون أن يحملوا هم أنفسهم الشهادات التي تقدمها مؤسساتهم. وخلال هذا الكفاح المرهق وئدت الأهداف الحقيقية للعلم وتحولت التربية المعاصرة إلى أداة للكسب وخادمة لمؤسسات الإنتاج ورأس المال .

أما على مستوى الجماعات فإن أخطر المشكلات التي أفرزتها - علاقة الاستهلاك - هي علاقة الصراع والبقاء للأقوى التي تربط الإنسان بالإنسان في الفلسفات المعاصرة . وهي علاقة توجه النشاطات السياسية والاجتماعية وتشكل العلاقات الدولية والعلاقات الطبقية وتفرز أزمات متسارعة متلاحقة. ولقد تعرضنا لتفاصيل هذه العلاقة في الفصل السابق من هذا البحث.

ومن الانصاف أن نقول إن الإنسان المعاصر في العالم العربي والإسلامي لم يسلم من هذه المشكلات، بل إن الفلسفات المعاصرة التي استوردتها مؤسسات التربية الحديثة، اختلطت في نفسه بالتراث الذي تقدمه مؤسسات التربية الإسلامية التقليدية، وتسبب هذا الاختلاط للإنسان المعاصر في العالم العربي والإسلامي بمرض الفصام القائم بين فكره.

وسلوكه. فهو يفاخر في محافل العلم وفي الندوات وعلى صفحات الكتب والمجلات وأماكن الدرس بما يقرأه في القرآن والحديث من أمثال فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) (۱) ، و إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) (٢) . ولكنه في حياته العملية يتصرف وكأن الحياة الاستهلاك المادي، وهو يوجه جهوده الدراسية والعملية والوظيفية لتوفير مواد الاستهلاك اللذيذة والفاخرة. وإذا نجح في ذلك تباهى بين أقرانه وذويه بأنه: «الآن أمن حياته إلى الأبد» ! !

هي والسبب في هذا الفصام أنه يعيش تحت تأثير نوعين متناقضين من التربية والتوجيه : نوع تقدمه المدرسة الإسلامية والمسجد والصحافة الإسلامية، والجامعة الإسلامية. وهذه تلقنه ـ نظرياً ـ أن الآخرة هي الحيوان . ونوع يتمثل في ما تقدمه المدرسة الحديثة، والكلية الحديثة والإذاعة والتلفزيون والصحافة الحديثة والإعلانات التجارية وكل هذه تلقنه أن الحياة حلوة وأن الدنيا سيجارة ومائدة لذيذة وأن الأسرة السعيدة هي التي تمتلك سيارة كذا ... ومنزل كذا .. وأثاث كذا .. وتزور مطاعم كذا .. وترتاد

مسارح وملاهي كذا والتطبيقات الحياتية العملية الجارية هي تجسيد لجميع هذه الإعلانات عن كذا وكذا . . . .

إن الإنسان المعاصر في البلاد العربية والإسلامية يفاخر بتراثه الروحي وقيمه غير المادية. ولكنه في حاضره يغوص في بحار المادية مدفوعاً - أيضاً - بعقدة النقص التي يستثمرها الغربي المعاصر بدهاء حين يسوقه إلى المزيد من استهلاك المنتوجات التي يصدرها إليه ويصور له أن التقدم يقاس بالأشياء التي يستهلكها الإنسان في حين أن هذا الغربي أخذ يخرج من بحار المادية ويجوب الأرض باحثاً عن مفهوم للحياة أكثر تسامياً وانطلاقاً !!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)سورة التوبة : الآية ٣٨ .

(۲) سورة العنكبوت الآية ٦٤

خامساً :

علاقة الإنسان بالآخرة

-علاقة مسؤولية وجزاء-

1- معنى المسؤولية وأقسامها : العلاقة التي تربط الإنسان بالآخرة هي علاقة مسؤولية وجزاء. فإذا انتهت مدة الحياة المقررة لابتلاء الإنسان طويت قاعة الامتحان - أو الأرض - وحل محلها عالم الآخرة . والآخرة هي المستقر النهائي الأبدي بعد رحلة الإنسان خلال الأطوار المختلفة .

أما المسؤولية فمعناها أن كل إنسان سوف يسأل عن تفاصيل ما ابتلي به في قاعة الحياة الدنيا. وفي ضوء نجاحه أو فشله في هذه المسؤولية سوف يتقرر جزاؤه ومستقره ؛ فإما النعيم الدائم في الجنة أو الشقاء الدائم في النار.

- فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون) . (سورة الحجر: الآية ۹۲ - ۹۳).

ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليما) . (سورة الأحزاب : الآية (۸) .

فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . (سورة الزلزال : الآيتان ۷ ـ ۸).

وتنقسم أشكال هذه المسؤولية إلى أقسام ومراتب تتوازى مع - علاقة الابتلاء - والدرجية في الحياة الدنيا. وهذه الأقسام هي:

القسم الأول، مسؤولية الرسل عن أداء رسالاتهم. وإلى هذه المسؤولية يشير القرآن بقوله تعالى :

يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. (سورة المائدة : الآية ١٠٩) .

ويقدم القرآن الكريم تفصيلات وأمثلة عن كيفية سؤال الرسل من ذلك سؤال عيسى ، عليه السلام :

وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . (سورة المائدة : الآية (١١٦).

ويسأل محمد صلى الله عليه وسلم : - .

وإنه لذكر لك ولقومك ولسوف تسألون . (سورة الزخرف : الآية (٤٤( .

ويقول صلى الله عليه وسلم : - ألا إن ربي داعي وإنه سائل؟ هل بلغت قد بلغتهم . ألا فليبلغ الشاهد عبادي؟ وأنا قائل له : رب منكم الغائب» (۱)

والثاني؛ مسؤولية الأمم عن موقفها من الرسالات التي بلغتها :

فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . (سورة الأعراف الآية (٦).

يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) . (سورة الأنعام: الآية (۱۳۰).

كذلك تسأل الأمم عن مدى تمسكها بحرياتها ورفضها الخضوع لغير الله :

- الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض . (سورة النساء: الآية (٩٧).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(۱) مسند أحمد، تصنيف الساعاتي، ج ۱، ص ٦٩

كذلك تسأل الأمم عن علاقاتها بقادتها والتحقق من ربط طاعتها لهم بطاعة الله. لذلك أدان القرآن قوم فرعون لأنهم سمحوا لفرعون بالاستخفاف بهم والتلاعب بمصائرهم :

)فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين). (سورة الزخرف : الآية (٥٤ (. كذلك تسأل الأمم عن التخلف والجمود والرضى بالتقليد الأعمى للآباء والسابقين.

قال : ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار. قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . (سورة الأعراف : الآية ٣٧).

كذلك تسأل الأمم عن الخيرات والنعم التي تمتعت بها كيف جمعتها وفيما أنفقتها :

- ثم لتسألن يومئذ عن النعيم . (سورة التكاثر : الآية (۸) . ويقول صلى الله عليه وسلم :

إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح جسمك ونروك من الماء البارد؟ (۱).

وعن علي في قوله تعالى: وثم لتسألن يومئذ عن النعيم قال: «من أكل من خبز البر وشراب من الفرات مبرداً، وكان له منزل يسكنه فذاك من النعيم الذي يسأل عنه) (۲) .

كذلك يسأل المؤمنون عما تعهدوا به وبايعوا عليه :

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولا) . (سورة الأحزاب الآية (١٥).

)وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا) . (سورة الإسراء: الآية (٣٤) .

والثالث، سؤال القيادات الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والتربوية وأمثالهم .

وفي الحديث تفاصيل واسعة دقيقة لمثل هذا السؤال منها قوله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل يوم القيامة للأنبياء والعلماء أنتم كنتم رعاة الخلق فما صنعتم في.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)كنز العمال ، ج ۳، ص ٢٥٤ .

(٢) كنز العمال، ج ۲، ص ٥٥٥ .

رعاياكم ؟ ويقول للملوك والأغنياء : أنتم كنتم خزان كنوزي هل واصلتم الفقراء وربيتم الأيتام وأخرجتم منها حقي الذي كتبته إليهم ؟ ) .

وفي حديث :اخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الله تبارك وتعالى عبداً رعية قلت أو كثرت لا يسترعي إلا سأله الله تعالى عنها يوم القيامة أقام فيهم أمر الله تبارك وتعالى أم أضاعه حتى يسأله عن أهل بيته خاصة» (۱) ..

وفي حديث آخر: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته . والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته (۲) .

والقسم الرابع مسؤولية الفرد عن نفسه.

. ويقدم الحديث النبوي تفاصيل دقيقة عن هذا القسم من المسؤولية . من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)مسند أحمد (تصنيف الساعاتي)، ج ۲۳، ص ۱۷ .

(۲) صحیح مسلم ج ۲ ، باب فضيلة الأمير العادل، ص ٢١٣ مسند أحمد، ج ۲۳، ص ١٧ .

لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع :عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيها ،أفناه وعن ماله من این اكتسبه وفيها أنفقه وعن علمه ماذا عمل به (1).

والأحاديث التي تفصل المواقف التي يسأل خلالها الفرد عما ابتلي به في الحياة الدنيا كثيرة وشاملة وتتناول السؤال عن النعم والمكانة الاجتماعية وجميع أنواع السلوك وكيفية استعمال القدرات العقلية والجسدية والنفسية، وألوان العلاقات الاجتماعية وغير ذلك.

ويذكر القرآن بصراحة أن الفرد سوف يسأل عن كيفية استعماله للقوى السمعية والبصرية والعقلية :

-) إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا). (سورة الإسراء : الآية (٣٦) . والمسؤولية الاجتماعية في الحياة الدنيا هي نتيجة لازمة لعلاقة المسؤولية الأخروية وهي الحلقة التي تربط بين مواقف الإنسان في الدنيا وفي الآخرة وتجعلهما طورين متكاملين من الابتلاء والجزاء.

ولهذه المسؤولية الاجتماعية دوائر وميادين بعضها أكبر من بعض. وهي تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانية كما يلي :

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كنز العمال، ج ١٤ ، ص ٣٧٩ .

- ۱ - مسؤولية الفرد عن نفسه وعن ما منحه الله من قدرات عقلية وسمعية وبصرية وجسدية ونفسية ليستعملها فيما خلقت له طبقاً لأوامر الله ونواهيه .

٢ - مسؤولية الفرد عن أسرته وتشمل هذه مسؤولية الوالد عن الأبناء والبنات ومسؤولية الولد عن الوالدين ومسؤولية الزوجين كل عن الآخر.

٣ - مسؤولية الأقارب والأرحام بعضهم عن بعض.

٤- مسؤولية الفرد عن الأمة، ومسؤولية الأمة عن الفرد فيما يزيد في تقدم الأمة ويحفظ لها مقدراتها وأمنها : وفيها يوفر للفرد الأمن والحماية والاستقرار. ويتفرع عن هذه المسؤولية فروعاً عديدة مثل مسؤولية الحاكم عن الشعب، والقوي عن الضعيف، والغني عن الفقير.

٥-مسؤولية الجيل عن الأجيال اللاحقة في توفير. الحياة العقائدية والاجتماعية والاقتصادية السليمة وكل ما يساعدها على عبور مستقبلها بنجاح.

٦- مسؤولية الأمة عن الأمم. وسوف تناقش تفاصيل هذه في أهداف التربية الإسلامية .

V - مسؤولية الإنسان عن المخلوقات باعتبار أن المخلوقات كلها عيال الله وأحبها إلى الله أبرهم بعياله. وتتسع هذه المسؤولية حتى تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد .

وتركز - فلسفة التربية الإسلامية - على ضرورة إحاطة المسلم بميادين وتفاصيل - علاقة المسؤولية في الآخرة - وما يتفرع عنها من مسؤولية إجتماعية في الدنيا وأهمية هذا التركيز على هذه العلاقة وتعميقها في نفس المتعلم هو إيجاد إحساس عميق بمسؤوليته إزاء أفعاله وممارساته التي تدخل في دائرة العلاقات السابقة مع الله وبني الإنسان ومع الحياة ووزنها كلها بميزان العلاقات التي توجهها. فإن تعامل مع الله وزن هذا التعامل بميزان العبودية. وإن تعامل مع بني الإنسان وزنه تعامله بميزان العدل والإحسان. وإن تعامل مع الحياة وزن تعامله بميزان الابتلاء وإن تعامل مع الكون وزن تعامله بميزان التسخير. . . وهكذا .

**۲ - علاقة المسؤولية في فلسفة التربية الإسلامية و نظرية الحقوق في فلسفات التربية الحديثة**

تختلف ـ علاقة المسؤولية ـ في فلسفة التربية الإسلامية عما يقابلها في الفلسفات التربوية الحديثة وهي - علاقة الحقوق. فهذه الفلسفات الحديثة كالواقعية والبراجماتية والمثالية جميعها تعمل على توجيه المتعلم للبحث عن حقوقه والمطالبة بها. وهي في تعريفها لهذه الحقوق إنما تصدر عن مجموعة الرغبات والميول المتفق عليها بين الأكثرية في مكان ما وفي فترة زمنية معينة.

ما التربية الإسلامية فهي لا توجه المتعلمين للبحث ن الحقوق وإنما توجههم للقيام بمسؤولياتهم نحو الآخرين . وإذا ورد لفظ «الحقوق» في المصادر الإسلامية فإنما يرد ليوجه الأذهان إلى المسؤولية كأن يوجه المسلم أو المسلمة للحق الذي عليه( لا للحق الذي له). وفي مواقف متعددة حينما سأل البعض الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحقوق التي لهم أصر على أن تكون صيغة الجواب موجهة إلى الحقوق التي عليهم من ذلك ما رواه مسلم في صحيحه أن سلمة بن يزيد الجعفي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه. ثم سأله فأعرض عنه. ثم سأله في الثانية أو الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس وقال: اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم . وفي رواية ثانية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم (١) . وهذا الاختلاف بين الفلسفة التربوية الإسلامية والفلسفات الأخرى اختلاف أساسي وجوهري وله نتائج متعددة أهمها ما يلي :

**أولاً : حين يوجه الأفراد والجماعات للقيام بمسؤولياتهم .**

نحو الفرد والأسرة والمجتمع والإنسانية فإن الطابع الذي ينظم العلاقات هو - و - العطاء والبذل - وتكون النتيجة هي المودة والأخوة والتواصل وما ينتج عن ذلك من أمن واستقرار.

أما حينما يوجه المتعلم للبحث عن حقوقه فإن الطابع الذي تتخذه العلاقات هو «الأخذ» ويتصاعد هذا ـ الأخذ \_ الشهواني حتى يصبح نهباً ونهماً وتنافساً وتصارعاً. ويتفرع عن هذه السلبيات الاضطراب والتحاسد ومضاعفات الصراع والجريمة وغزوات الأمم والشعوب وتتقطع الروابط وتدمر العلاقات الإنسانية على مستوى الأفراد والأسر والجماعات والأمم . ولنا الأمثلة الواضحة لذلك فيها انتهت إليه العلاقات بين النساء والرجال وبين الطبقات الاجتماعية في الأقطار التي ركزت على الحقوق المختلفة. ففي العالم الغربي نرى التيار المتطرف بين النساء والرجال والذي بدأ بمطالبة المرأة بحقوقها ثم انتهى إلى ثورة المرأة كلياً على علاقتها الطبيعية مع الرجل واستغناء المرأة بالمرأة في حركة الشاذات المعروفة باسم (Lesbians) وهي عقلية تريد أن تنافس الرجل في كل موضع ومكان. ومن الأمور الطريفة في هذا الشأن ما حدث في البرنامج التلفزيوني الأمريكي الذي يقدمه دوناهيو (Donahue) على القنال الحادي عشر (۱۱) في الساعة التاسعة من صباح كل يوم . ففي يوم ۱۹۸۰/۱۲/۱۷ قدم – دوناهيو.

برنامجاً باسم (Sexism in the Bible) أي التمييز بين الجنسين في الكتاب المقدس». ومن التساؤلات التي جرى نقاشها بين جمهور النساء الحضور لماذا لم يختر المسيح ستة نساء وستة رجال ؟ بدل أن اختار تلاميذه من الرجال وحدهم؟ ثم جرى الاقتراح بأن يجري تغيير عدد من الجمل والتعابير في الإنجيل لإعطاء النساء مكانة أفضل في الكتاب المقدس.

إن عدم الانتباه إلى هذا الفرق الأساسي بين مفهوم المسؤولية ومفهوم الحقوق وبين منهج التربية والتوجيه في كل منها قد قاد كثيرا من الباحثين والكتاب من الغربيين والإسلاميين إلى الوقوع في خطأ الاستنتاج والتقويم حين تبادلوا الهجوم والدفاع حول أمثال «حقوق المرأة» أو «حقوق العمال» أو «حقوق الشعب» أو «حقوق الحاكم والمحكوم او حقوق الزوج والزوجة بين الإسلام والنظم الأخرى. مثلاً لذلك البحث المشترك الذي قام به كل من جين سميث - من جامعة هارفارد، و ـ ايفون حداد ـ من هارتفورد ،سميناري والذي نشر في مجلة ـ الأكاديمية الأمريكية للديانات - تحت عنوان: «المرأة في الحياة الآخرة: ونأخذ وجهة نظر إسلامية مستمدة من القرآن والسنة .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

. Jane I. Smith and Yvonne Y. Haddad. «Women in the Afterlife: (1( Islamic View as Seen from Qur'an and Tradition>> in Journal of the American Academy of Religion, XLIII, No. 1, (1975), PP. 39-50.

وخلاصة هذا البحث أن دخول النساء الجنة أو النار مرهون بعلاقاتهن بأزواجهن لأن الأحاديث كلها تربط هذا الدخول بطاعة المرأة لزوجها، وأن بعض مضامين هذه الأحاديث تقرر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». ولقد استنتجت الباحثتان من ذلك كله أن هذه الأحاديث وضعها الرجال وبواسطتها استطاعوا أن يغرسوا في نفوس النساء الرعب من العقاب الخالد في الدار الآخرة إذا ما خالفن أزواجهن ولست في مقام شق الصدور والكشف عن النوايا التي دفعت بالباحثين لسرد هذه التأويلات الخاطئة. وهي أنهما تحريا الموضوعية إلا أن المنهج الذي استعملناه في البحث والدراسة هو منهج خاطىء تمام الخطأ. ذلك أن الباحثتين لم تدركا أن التربية الإسلامية توجه الفرد نحو مسؤولياته إزاء الآخرين بدل المطالبة بحقوقه كما ذكرنا، وإنما نظرنا في الموضوع حسب المقاييس الغربية في ـ المطالبة بالحقوق . ولو أن الباحثتين أجريتا بحثاً آخر عن «الرجل في الحياة الآخرة لخرجتا بنفس النتائج وهي أن دخول الرجل الجنة أخلاقه مع زوجته أو النار مرهون إلى حد كبير بحسن وأسرته، وأن التوجيهات المتعلقة بعلاقة الرجل بالمرأة تنصب

كلها على حث الرجل على القيام بمسؤولياته نحو زوجته مثلما تحث المرأة على القيام بمسؤولياتها نحو زوجها .

ولعل من الإنصاف والموضوعية أن نقول أن كثيراً من الكتاب المعاصرين في العالم العربي والإسلامي قد وقعوا في نفس الخطأ المنهجي فاستعملوا منهج المطالبة بالحقوق؛ إما لإثارة «العمال» و «المرأة» و «الشعب» للمطالبة بحقوقهم وإما لإثبات أن في الإسلام حقوق العمال» و «حقوق المرأة» و «حقوق الشعب» إلى غير ذلك مما تحويه مقولات الحقوق. فكانت النتيجة أن هذه الكتابات لم تثمر في تصحيح أوضاع العمال والمرأة والشعب بل أسهمت في نقل جرثومة الصراع الطبقي والجنسي والسياسي إلى العالم العربي والإسلامي وما تبعها من مضاعفات الفتن والانقلابات العسكرية والهزات الاجتماعية .

والنتيجة الثانية، أن فقدان علاقة المسؤولية أمام هي فلسفات التربية الحديثة جعل الإنسان المعاصر يعيش الله من بدون رقابة داخلية ولا ضوابط أخلاقية في مختلف ميادين الحياة. ويقدم لنا - لانسج لامونت ـ في بحثه الشامل عن الجامعات في الولايات المتحدة بعنوان: «صدمة الحرم الجامعي صوراً وتفاصيلاً خطيرة عن مستوى الحياة الأخلاقية.

بين الهيئات التدريسية والطلبة (۱) . ومثله البحث الذي قام به كل من - بيلي رايت زيك - و - ليندا واينر - بعنوان : البروفسور الداعر التحرشات الجنسية في الحرم الجامعي» (٢). وشيوع هذه الانهيارات الأخلاقية في المؤسسات التربوية جعل مربياً كبيراً مثل - أبراهام ماسلو - يكتب في بحثه الثورة غير المرئية» أنه سيتردد في إرسال أبنائه إلى الجامعات التي توصف بأنها ممتازة كتردده في إرسالهم إلى - بيت دعارة - ثم يضيف: «إن الناشئة يتطلعون إلى حقائق مؤكدة كتلك التي تقدمها الأديان والتقاليد الراسخة .. وإن كلا من الإله وماركس وفرويد ودارون ماتوا في ضمائر هؤلاء الناشئة وليس لديهم مصدر للقيم كما ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث.

ومن الآثار السيئة لفقدان علاقة المسؤولية أمام الله في التربية المعاصرة أن الكثير من خريجي المؤسسات التربوية الحديثة من أصحاب المهن المختلفة يفتقرون إلى الضوابط الأخلاقية الحقيقية. ونحن نعرف هيمنة الروح المادية على أمثال هؤلاء في ميادين الطب والتكنولوجيا وغيرها وقيامهم .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Lamont, Campus Shock, (New York: E.P. Dutton, 1979). (1) Billie Wright Dziech & Linda Wciner. The Lecherous Professor (۲) Sexual Harassment on Campus. (Boston: Beacon Press, 1984).

بالكثير من الإجراءات والمعالجات التي لا مبرر لها إلا زيادة الأجر والأثمان .

ومن الشواهد الطريفة على ذلك ما عرضه ـ دوناهيو - (Donahue) في برنامجه في الساعة التاسعة صباحا من يوم الثلاثاء الموافق ۱۲/۲۳/ ۱۹۸۰ حيث قدم للحضور من جمهوره النسائي امرأتين اثنتين الأولى تسمى Pamela (Peckingham والثانية (Judy) ومعهما باحثة في الاغتصاب. ولقد ذكرت الامرأتان أنهما ذهبتا إلى طبيب نفساني للعلاج من البرود الجنسي. وأن الطبيب أشار على كل منهما أن يمارس الجنس معها كجزء من العلاج وذكرت إحداهما أنه استمر في ممارسة الجنس معها لثلاث سنوات يتقاضى عن كل مرة ١٢٠ دولاراً . وحين بدأ ـ دوناهيو - إدارة المناقشة اتصلت امرأة ثالثة تلفونياً وقالت إن ذلك حدث معها وأنها لم تخبر زوجها بذلك خوفاً من الطلاق. ثم توالت التلفونات لتكرر نفس الأنباء.

وهنا قالت - الباحثة في الاغتصاب ـ إن ذلك يحدث كثيرا وإن من النسوة من يحملن من الأطباء النفسانيين ويرفضون مساعدتهن في المشاركة بأجرة الإجهاض، وأضافت إن الأطباء العاملين في المستشفيات يفعلون ذلك أيضاً.

وهنا شارك - المحامي روبرت كوهين (Robert Cohen) وقال إنه قابل قضايا كثيرة مثل هذه الحوادث.

وفي نهاية العرض أعلن دوناهيو أن من يريد نسخة من المناقشة التي جرت فليرسل إلى العنوان التالي : P.O.Box: 594, La Jolla CA. 92038.

وثمة مثال آخر لفقدان الإحساس بالمسؤولية هو حين زار البابا بول الثاني أمريكا عام ۱۹۸۰ ودعا الأمريكان إلى عدم الإجهاض وعدم استعمال منع حبوب الحمل. لقد أجرى مراسل صحيفة - واشنطون بوست - مقابلة عدد النساء حول مدى استجابتهن لنداء البابا فقالت إحدى من مع النساء : The Pope is in Rome and I am on the Pill» ومعناها :

البابا في روما وأنا مستمرة على حبوب منع الحمل (١) .

ومما كشفته آيات الله في الأنفس ـ أو علم النفس حسب مصطلحنا المعاصر - أن الشعور بالمسؤولية عميق الجذور في النفس البشرية وأن الإنسان يلتذ لهذه المسؤولية ويسعد في إتيانها ويسهل عليه ممارستها أكثر من الأخذ !!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

The Washington Post, October, 4, 1980, Page: A19. (1) ٢٢٦

ولقد استطرد عالم النفس الشهير - إيرك فروم - (Erich Fromm) في استعراض هذا الجانب. وخلاصته ما وصل إليه في هذا الشأن هو أن المسؤولية عميقة الجذور في النفس الإنسانية وهي تتجلى بظاهر - الحب - الذي هو عطاء وليس أخذا . . . وأهم مظاهر العطاء ليست في الأشياء المادية وإنما في المجالات الإنسانية. فالفرد يعطي من نفسه ومن حياته ومتعته ومن اهتماماته ومعارفه ومزاجه وأحزانه، ومن كل عناصر الحياة في وجوده ليشيع الحياة في الآخرين. وهذا العطاء يتكون من أربعة عناصر رئيسية وجود ' هي : الرعاية والمسؤولية والاحترام والمعرفة.

ويتجلى مظهر الرعاية في حب الأم لطفلها، والرعاية نفسها نابعة من الإحساس بالمسؤولية. فالمسؤولية حاجة نفسية تنبع من داخل الإنسان وهي استعداد نفسي لتلبية حاجات الآخرين. والمسؤولية هي نتيجة العنصر الثالث للحب وهو ـ الاحترام - والاحترام هو القدرة على رؤية الإنسان على حقيقته والتعرف على وجوده المتميز. وهو أيضاً الاهتمام بتوفير الفرصة للآخر لينمو ويترعرع وينضج لنفسه دونما . استغلال أو لخدمة الآخرين.

ولكنا لا نحترم إنساناً إلا إذا عرفنا منه ما يستحق ،الاحترام وبدون المعرفة تصبح الرعاية والمسؤولية والاحترام.

سلوكاً أعمى، فالمعرفة هي الدافع للرعاية والمسؤولية والاحترام .

وبهذا يكون الحب حصيلة أربعة مكونات هي: الرعاية والشعور بالمسؤولية، والاحترام والمعرفة . ويضيف - فروم - (Fromm) إن معاني هذه العناصر الأربعة التي تكون الحب قد تعرضت للتشويه في وقتنا الحاضر خلال الأفهام الخاطئة التي صورت المسؤولية واجباً مفروضاً على الإنسان من خارج نفسه، وصورت الاحترام على أنه المهابة والخوف وانتهت بالمسؤولية لتصبح تسلطاً من وهيمنة (١).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Erich Fromm, <<The Nature of Love» in. The Contemporary Scene, (1) edited by Paul B. Weisz, (New York: Mc. Graw Hill, 1970) PP. 158-159.

**نظرية المعرفة**

**في التربية الإسلامية**

المعرفة - في التربية الإسلامية - وحدة واحدة وهي هذه الصفة من ثلاثة أمور الأول وحدة مصدر المعرفة و الخالق سبحانه وتعالى. والثاني وحدة ميدان المعرفة و الخالق - أو الوجود القائم. والثالث وحدة الغاية من المعرفة وهي معرفة الله تعالى. ومن هذه الصفات الثلاث تتفرع وحدة أدوات المعرفة ووحدة العاملين في ميدانها .

وهو أما تفاصيل ذلك فهي كما يلي:

أولاً :

غاية المعرفة ومصدرها

ودور الإنسان فيها

الغاية الأساسية للمعرفة في التربية الإسلامية هي معرفة الله . ولقد أجمل القرآن هذه الغاية عند قوله تعالى :

فاعلم أنه لا إله إلا الله . (سورة محمد الآية (۱۹).

ثم عرض تفاصيل هذا الإجمال في مختلف السور والآيات .

ومعرفة الله هي معرفة أفعاله ومظاهر تدبيره وتصريفه في الخلق والوجود القائم. فهذه المعرفة هي السبيل الفعال لتحقيق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها وهي عبادته سبحانه وتعالى. وعبادته ـ كما سبق ـ هي طاعته طاعة كاملة لمحبته محبة كاملة .

- والله سبحانه هو المصدر الحقيقي للعلم والمعرفة :

- (وإنما العلم عند الله ) . (سورة الملك : الآية (٢٦). (سورة الأحقاف : الآية (۲۳) .

وعلم الله هو علم شامل لكل ما هو مشهود محسوس أو مغيب غير ملموس :

(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم). (سورة التغابن : الآية ١٨) .

وعلم الله علم كامل يحيط بكل ما يتعلق بموضوعات العلم إحاطة مطلقة :

وإن الله قد أحاط بكل شيء علما (سورة الطلاق: الآية (١٢).

وعلم الله علم مفصل دقيق يتناول دقائق الأشياء والأحداث والتطورات :

ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور. وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ) (سورة سبأ: الآية٢-٣)

وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات.

الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين). (سورة الأنعام: الآية ٥٩).

(والله يعلم ما تبدون وما تكتمون). (سورة المائدة : الآية (۹۹).

الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . (سورة الرعد : الآية (۸) .

ومعرفة الله معرفة واسعة لا حدود لها ولا نهاية :

ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده - من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . (سورة لقمان : الآية (٢٧).

أما معرفة الإنسان بجميع أشكالها وصورها فهي مستمدة من هذه المعرفة الإلهية.

: علم الإنسان ما لم يعلم . (سورة القلم الآية (٥):

ويعرض القرآن نماذجاً وأنواعاً للمعرفة الإنسانية المستمدة من الله فيذكر منها :

المعرفة اللغوية :

- (خلق الإنسان علمه البيان) (سورة الرحمن: الآية (٤).

والمعرفة الدينية :

وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . (سورة المائدة : الآية (۱۱۰).

والمعرفة الصناعية :

- (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ) . (سورة الأنبياء: الآية (۸۰ )

والمعرفة العلمية والإدارية :

- (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ) . (سورة البقرة: الآية (٢٦٩ ).

ومعرفة الكتابة :

علم بالقلم .

ومعرفة تدريب الحيوان :

- وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله . (سورة المائدة : الآية (٤) . ومعرفة تحليل الأحداث والوقائع :

- . وعلمتني من تأويل الأحاديث). (سورة يوسف : الآية ١٠١ )

وثمرة هذه المعرفة الإنسانية هي تحقق الإنسان من معرفة الله وتنزيهه وطاعته :

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . (سورة البقرة: الآية (٣٢) .

أما الكيفية التي يعلم الله بها الإنسان فقد جعل الله لذلك ميادين وأدوات وقوانين وطرائق. وتفاصيل ذلك كما يلي :

ثانياً :

ميادين المعرفة

تنقسم ميادين المعرفة إلى ميدانين رئيسيين هما: ميدان الغيب وميدان الشهادة .

أما ميدان الغيب فموضوعه الله سبحانه والملائكة وما قبل الحياة وما بعدها. وأما ميدان الشهادة - أي الذي تمكن مشاهدته - فموضوعه كامل الوجود بكلياته وجزئياته . ويتكامل ميدانا الغيب والشهادة ويتلاحمان بحيث أن المعرفة لا تتم في أحدهما إلا من خلال المعرفة في الميدان الثاني. ولذلك لم يوجه القرآن إلى البحث فيهما لا يقع تحت السمع والبصر. فالغيب في الإسلام يختلف عن معنى الميتافيزيقا - التي هي في نظر الغرب أمر لا برهان عليه ولا يخضع لقانون. والمسلمون مكلفون بأن لا يؤمنوا تمالا برهان عليه ولا بشيء ليس عليه قانون (۱).

وينقسم عالم الشهادة كذلك إلى ميدانيين رئيسيين: ميدان الآفاق وميدان الأنفس وهذان الميدانان هما ميدانا العلوم الكونية والعلوم الاجتماعية وعلم النفس. وإلى هذين الميدانين أشار تعالى بقوله :

- وسنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). (سورة فصلت : الآية ٥٣).

وترتبط عملية المعرفة في ميدان الآفاق والأنفس مع عملية الخلق ارتباطاً كاملاً حيث أن المعرفة هي العلم بنشأة المخلوقات وتكوينها ومعرفة الأحوال التي تعتريها، والقوانين التي تسيرها ومعرفة الطريقة والأسباب والوسائل والأدوات التي يبرز الخلق من خلالها :

- اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ) . (سورة العلق : الآية ١ - ٥ - )

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . (سورة آل عمران الآية (۱۹۰).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(۱) جودت سعيد العمل، ص ۱۹

وتجري عملية الخلق

التفاعل والتأثير مع الإنسان

ومجهوداته. ولذلك احتاج

طبيعتها وخطواتها وكيفية ت

آفاقاً وتفاصيل لا حد لها

مستمرة لاستمرار عملية اما تفاصيل هذه الظواهر ف

۱ - ظاهرة الزوجية :

- فالمخلوقات كلها – المادي

زوجين اثنين يعبر عنهما في عالم

بالذكر والأنثى، وفي الجماد بالموجب

بالصواب والخطأ، وفي المشاعر لها مته

والغضب والسرور والحزن .

- سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) . (سورة يس : الآية )٣٦

. وهذه الأزواج هي أدوات الخلق وآلاته. وهي في الإنسان والحيوان وفي عالم الفكر والمشاعر مصحوبة بجواذب نفسية وترافقها استعدادات جسدية ونفسية وبيئية تضمن استمرار عملها ووظائفها. أما في الجماد فيقابل ذلك جاذبية.

بين الموجب والسالب ولا يزال العلم الطبيعي يكشف المزيد من هذه الجواذب والخصائص . ويقدم القرآن تفصيلات وأمثلة لهذه الزوجية فيذكر منها :

وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين . (سورة هود: الآية (٤٠).

ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . (سورة الرعد: الآية (۳).

- ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . . (سورة الذاريات: الآية (٤٩).

وتتنوع الأزواج والأجناس تنوعاً يبرز إبداع الخلق وتنوع قدرات الخالق وأفعاله .

٢ - ظاهرة السببية :

لكل خلق سبب يعرف الله من خلاله بصفة من صفاته أو فعل من أفعاله ومعرفة هذه الأسباب وخصائصها أو إتقان من آفاقاً التعامل بها أو التعايش معها تفتح المعرفة لا حدود لها. والرسوخ في هذه المعرفة وتطبيقاتها هي تحقيق للاستعانة التي أمر الله بها عند قوله : وإياك نستعين والإنسان هو الذي يتحرى الأسباب ويأخذ بها.

ولكن حتى لا يقع الوهم بفاعلية الأسباب المطلقة أو أنها هي الخالقة يجري تعطيل عمل هذه الأسباب في حالات معينة فتمارس عملها دون خلق من ذلك الزواج ودوره في الإنجاب والولادة :

(- ويجعل من يشاء عقيماً). (سورة الشورى: الآية (٥٠) .

والإنسانية قد توهمت - في فترات كثيرة من التاريخ - بفاعلية هذه الأسباب وقدرتها على العطاء والمنع كما توهمت - حمامة سكنر - بفاعلية النقطة المضيئة في أعلى الصندوق وقدرتها على إسقاط حبة القمح أو حبسها فراحت تنقرها عند الحبس !! فتوهم الإنسان بقدرة الشمس والقمر والنهر والحيوان والإنسان على المنع والعطاء ومضى ينقر لهؤلاء جميعاً أو يسجد ـ بجبهته كلما توقف عنه العطاء.

٣ ـ ظاهرة الوحدة والتنوع : تتوجد المخلوقات من حيث النشأة والأصل ولكنها تتنوع تنوعاً يفوق الحصر. فنحن نرى كيف أن لكل الوجود الفكري والوجود المادي أبجدية محدودة ومنها يتفرع تفرعاً لا نهاية له .

فعلى مستوى الوجود الفكري هناك أبجديات اللغة حيث لكل لغة حروف محدودة ثم تجتمع هذه الحروف الأولية.

وبكيفيات متفاوتة تتشكل الكلمات ومن مزيج الكلمات تتركب الجمل حيث يصل الإنسان الذروة في رقيه الإنساني ويعبر عن ما حوله بألفاظ مختصرة ويحصل التفاهم بين البشر وتقوم العلوم وتتوارثها الأجيال.

وعلى مستوى الوجود المادي هناك أبجدية أقل حروفاً حيث تتألف من عناصر محددة جداً هي حسب ما كشف عنه العلم حتى الآن ثلاثة : البروتون، والالكترون والنترون . ومن العناصر الثلاثة التي هي كتل مادية تحمل شحنات كهربائية يتكون الكون كله بمواده ،وأحيائه، حيث تتحد هذه الكتل الثلاث بنسب مختلفة لتكون العناصر. فمثلا غاز الهيدروجين وهو مكون من بروتون واحد في مركزه يدور حوله الكترون واحد وإذا أضيف إليه بروتون جديد تشكل غاز جدید هو الهيليوم. ومن الغريب أن الغاز الأول الهيدروجين ـ هو غاز مشتعل يمكن أن يؤدي الانفجارات الهيدروجينية إلى تدمير الكون بينما الغاز الثاني - الهيليوم ـ هو غاز خامل . ولو أضيف إلى الهيليوم بروتون جديد يتشكل معدن .

وهكذا نرى تطور العناصر من غازات تطير إلى سوائل تركد إلى معادن هشة إلى معادن صلبة إلى سيول حامضة أو قلوية، أو تأثيرات سامة إلى ألوان مختلفة، إلى تفاعلات.

مختلفة، إلى إشعاعات كما في اليورانيوم والراديوم (١) . وإلى هذه الوحدة وهذا التنوع يشير قوله تعالى : -

- (يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير). (سورة فاطر: الآية (١).

وأهمية هذه الوحدة وهذا التنوع أنهما يبرزان بوضوح وحدة الخالق ووحدة المصدر إلى جانب عمق قدرة الخالق ودقة الخلق وسعته وشموله والقرآن يشير إلى ذلك في مواطن عديدة وينبه إلى أهميته وإلى الاستنتاجات التي يجب أن تترتب عليه من ذلك قوله تعالى :

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . (سورة الملك : الآية ٣ ) .

وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولَعَلَى بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . (سورة المؤمنون: الآية (۹۱).

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً . (سورة النساء : الآية (1) .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(۱) د. خالص جلبي، الطب محراب الإيمان، ج ۲، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العربية، ١٩٧٤/١٣٩٤)، ص . ٤٠ - ٤١

- والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء. إن الله على كل شيء قدير. (سورة النور: الآية (٤٥).

- ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً، إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب . (سورة الزمر : الآية (۲۱).

- ظاهرة التطور :

فالخلق يتم خلال أطوار ومراحل. وهذه الأطوار موجودة في ميادين الخلق عامة. فهي موجودة في خلق السموات والأرض حيث يذكر القرآن أنها حدثت في ستة مراحل منها مرحلتين للأرض ومنها أربع مراحل للسموات. وهي موجودة في خلق الإنسان حيث يمر خلال أطوار النطفة والمضغة والعلقة والطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة . وتمر الجماعات والأمم خلال أطوار من النشأة والقوة والضعف والغنى والفقر والتقدم والتأخر، والعلم والجهل إلى غير ذلك من الأطوار الاجتماعية والعلمية والنفسية وهي موجودة في خلق الحيوان والنبات والأجناس كلها. وظاهرة التطور هذه تؤثر في حياة الإنسان تأثيراً بالغاً

ولذلك احتاج إلى معرفة مجرياتها وعواملها ونتائجها، وهي تفتح آفاقاً ومياديناً من المعرفة لا حد لها ولا يمكن الإحاطة بها أو الانتهاء إلى نقطة معينة فيها .

**ه - ظاهرة تكامل عالم الغيب وعالم الحس** :

الغيب في الإسلام عالم موجود ولكنه ما زال مغيباً عن المشاهدة. أما عالم الحس فهو ما تم بروزه ومشاهدته ولذلك يسمى ـ عالم الشهادة-

والعلاقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة علاقة متكاملة ومتبادلة ومتجددة. وتتمثل هذه العلاقة في أمرين : الأول أن أدلة عالم الغيب وبراهينه موجودة في عالم الحس. والثاني أن المخلوقات تبرز من عالم الغيب إلى عالم الحس، وتنتقل من عالم الحس إلى عالم الغيب بانتظام واضطراد. ومن أمثلة ذلك الولادة والموت في عوالم الإنسان والحيوان والنبات، والتحول بين حالة المادة وحالة الطاقة في الجمادات، وبروز الحوادث واختفاؤها في مجرى الزمن .

وهذه الظاهرة - ظاهرة تردد المخلوقات بين عالمي الغيب والشهادة هي ظاهرة مستمرة جارية خلال رحلة الإنسان الطويلة وهي تفتح آفاقاً من البحث والدراسة والكشوفات العلمية لا حصر لها.

٦- ظاهرة القانون :

تجري عمليات الخلق والتردد بين عالمي الغيب والشهادة طبقاً لقوانين محكمة دقيقة. والقرآن يشدد على الانتباه لهذه الظاهرة ويفند التصورات المخالفة لها. فينفي العبث عن الخلق، ويلفت النظر إلى دقة الحكمة في الخلق والمخلوقات والأحداث وهو يعبر عن هذه الظاهرة بأسماء مختلفة. فتارة يسميها «القدر» وتارة «الحق) وتارة «الأجل».

والأمثلة لذلك كثيرة منها :

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . (سورة ص : الآية (٢٧).

- (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) . (سورة الدخان : الآية (۳۸).

-إنا كل شيء خلقناه بقدر ) (سورة القمر الآية ٤٩)

( فقدره تقديراً). (سورة الفرقان : الآية (٢).

- وما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى . (سورة الروم : الآية (۸) .

ومعروف أن ظاهرة القانون من أبرز الظواهر التي تسهل المعرفة وتطبيقاتها العملية .

والواقع أن مفهوم «القضاء والقدر الذي يشير إلى الخلق الهادف والوجود المقنن هو فتح عميق في تطور حياة أعظم «البصائر» التي جاء بها القرآن الكريم. فقد كان الإنسان - قبل ذلك - - يتصور أن الوجود خاضع لملايين القوى العاتية العابثة التي لا يمكن التنبؤ بأعمالها ولا معرفة غاياتها. ولذلك كان الإنسان ضحية الخرافة والصدفة والعدمية وهو الأمر الذي ارتدت إليه فلسفات الوجودية في الحضارة المعاصرة بسبب الأصول اليونانية والرومانية لهذه الفلسفات .

ثالثاً :

أدوات المعرفة :

الوحي والعقل والحس

أدوات المعرفة - في التربية الإسلامية - ثلاث هي : الوحي والعقل والحس فالوحي هو أداة المعرفة في ميدانها الأول ـ ميدان الغيب -. أما العقل والحس فهما أداتا المعرفة في ميدانها الثاني - ميدان الآفاق والأنفس .

**۱ ـ تكامل أدوات المعرفة :**

تتكامل أدوات المعرفة الثلاث لبلوغ الغاية الرئيسية وهي معرفة الله تعالى. فالوحي للعقل بمنزلة الشمس أو الضوء للبصر. فكما أن البصر لا يبصر الأشياء إذا انفرد في الظلمة، كذلك العقل لا يبصر الحقائق وأهدافها إذا انفرد في البحث عنها ولذلك سميت آيات الوحي في القرآن بصائر». وتكررت الإشارة إلى هذه البصائر في مواضع عديدة :

- وقد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه. (سورة الأنعام: الآية ١٠٤ ) .

- وهذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يوقنون . (سورة الأعراف الآية (۲۰۳) .

ـما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر. (سورة الإسراء : الآية ١٠٢).

بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون . (سورة القصص : الآية ٤٣) .

هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . (سورة الجاثية : الآية (۲۰)

والبصائر جمع بصيرة. ويعرفها الرازي أنها اسم للعلم والإدراك التام الحاصل للعقل(١). والذي نراه أنها إرشادات إلهية تقود العقل إلى العلم الصحيح وإلى استخدام ثمرات العلم استخداماً سليماً عن طريق تحديد مسار العقل هي تحفظ العقل من وغايات المعرفة وميادينها. كذلك الانحراف إلى ميادين الوهم والظن والخرافة واجتهاد العقل والبحث في ضوء هذه (البصائر) كالاجتهاد في البحث عن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- (۱) الرازي، التفسير، ج ١٤ ، ص ١٣٤

الشيء الخفي في النهار أو الضوء والاجتهاد بدون هذه البصائر كالبحث عن الشيء الخفي في الظلمة. ولذلك سمي النهار (مبصراً) مواضع عديدة من القرآن الكريم (۱). والقعود عن الاجتهاد مع وجود هذه البصائر لا يوصل إلى المعرفة مثل عدم البحث عن الشيء الخفي رغم وجود الضوء أو النهار.

ويتضح تكامل عمل الوحي والعقل والحس في مكان القرآن عند الحديث عمن جمعوا بين معارف الوحي آخر من والعقل والحس : -

- إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون). (سورة الأعراف الآية (۲۰۱)

فالطائف قد يكون فكرة خاطئة تتسلل إلى مركز التفكير وتطوف فيه بسبب مقولة ينفثها شيطان إنسان على صحيفة .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

من ذلك قوله تعالى : -

هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . (سورة يونس : الآية (٦٧).

- ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) . (سورة النمل : الآية (٨٦).

الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً). (سورة غافر: الآية (٦١) .

أو في كتاب أو من خلال مذياع أو تلفاز. أو خاطرة شريرة تدخل النفس بسبب التأثر بشيطان إنسان يسوقها كنصيحة أو فتنة أو . . أو . . أو حس محرم يطوف في أعصاب الجسد بسبب منظر مثير أو قصيدة ماجنة أو أغنية منحلة يطرحها شياطين مردوا في هذه الشيطنة .

فإذا مس الذين اتقوا مزالق الوهم والرذيلة والخطأ بمعرفتهم ودراستهم شيء من هذا الطائف الشيطاني تذكروا ما وعتهم عقولهم من (بصائر) الوحي عن أمثال هذا الطائف عمله السيء فأبصرت عقولهم خطورته وانتهت ونتائج أعضاؤهم وتوقفت عن فعله .

وتاريخ العقل يقدم الأمثلة الكثيرة لضرورة التكامل بين الوحي والعقل ولخطورة انفصال أي منهما عن الآخر. فحين انفصل العقل عن الوحي جنح ــ في مرحلة ما ـ إلى الاستبصار بالسحر وضرب الحصا كمنهاج للمعرفة؛ فتحكم العرافون والسحرة في حضارات ودول كما حدث في الحضارة الفرعونية والحضارة البابلية .

وفي مرحلة ما لجأ العقل إلى الاستبصار بقوى وأرواح غيبية موهومة .

وفي مرحلة العصر التكنولوجيا يطرح العقل عن الوحي المنفصل حلولاً لمشكلات العصر تبدو آثارها المدمرة .

واضحة مثل اقتراح الحروب وقتل العناصر الضعيفة والفقيرة لحل مشكلة الغذاء وتوزيع السكان واقتراح الشذوذ الجنسي لمعالجة الخلافات التي تقوم في الأسرة وغير ذلك مما تبشر فيه فلسفات احتلت مكان (بصائر) الوحي الصحيح .

والقرآن يسمي عمل العقل والحس - نظر ـ ويعرف ابن تيمية النظر فيقول : النظر هو نظر القلب ونظر العين» (١). ونظر القلب عند ابن تيمية يعني العمل العقلي لأن العقل عنده فعل من أفعال القلب وليس كائناً مستقلاً. ويقول أيضاً: والنظر جنس تحته حق وباطل، ومحمود ومذموم (۲) .

ويتكرر الحض على النظر في الآفاق والأنفس وفي المكونات والمخلوقات في مواضع كثيرة من القرآن. ومن السذاجة أن نتصور أن المعنى المقصود بالنظر في جميع المواقع أنه مجرد النظر بالعين المجردة لأن الموضوعات التي يطلب النظر إليها كثير منها لا تطوله العين المجردة إذا لم يصاحبها المايكروسكوبات المكبرة والمراصد والتلسكوبات والتشريح الطبي، والتحليل المخبري والبحث التاريخي، والتنقيب الأثري، ودراسة تطور الأحياء وغير ذلك مما هو معروف في.

ميدان البحث العلمي؛ ومن أمثلة الدعوة إلى النظر في میدان الآفاق ــ ما يلي :

أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض . (سورة الأعراف الآية (١٨٥) .

- فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً، شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً، متاعاً لكم ولأنعامكم . (سورة عبس : الآيات ٢٤ - ٣٢) .

- أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . (سورة ق : الآية ٦ ، ٧ .

قل انظروا ماذا في السموات والأرض . (سورة يونس : الآية ١٠١).

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . (سورة العنكبوت الآية (۲۰).

أما النظر في ميدان الأنفس فهو مثل قوله تعالى : -

فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب ) . (سورة الطارق : الآية (٥) .

قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين). (سورة الأنعام: الآية (۱۱).

أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. (سورة يوسف : الآية (١٩).

إن الأمر القرآني بالبحث العلمي هو جزء من الأمر الإلهي لتحقيق الإيمان ورعايته وتنميته، لأن البحث العلمي يقوي الإيمان ويرسخه وهو بعض أدواته ووسائله. وحين يقول تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت). فذلك أمر لدراسة تركيب أجساد الإبل ووظائف أعضائها وطريقة البيئة الصحراوية التي تعيش فيها. والذين توجهوا من العلماء المسلمين - إلى ميادين الفلك إنما كانوا مدفوعين بقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض) . والأمر الإلهي :( انظروا ماذا في السموات والأرض ) هو بنفس الأسلوب الذي ورد فيه الأمر الإلهي (أقيموا الصلاة) ( وآتوا الزكاة) - وإن كان نقاش الفقهاء يدور ليجعل الأمر الأول فرض كفاية والأمر الثاني فرض عين . ولذلك قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(١)ابن تيمية الفتاوى التفسير، ج ١٦ ، ص ٢٢٢.

(۲) ابن تيمية الفتاوى كتاب السلوك ، ج ۱۰، ص ٤٨٦ .

**- الكيفية التي يتعاون بها الوحي والعقل والحس:**

يتعاون كل من الوحي والعقل والحس للوصول إلى المعرفة اليقينية كالتالي :

1. تتلو آيات الوحي - الخبر - الذي يتضمن أمرين : الأول الإرشاد والتوجيه إلى ميدان البحث وموضوعه الذي هو بعض الكائنات أو الأحداث أو المظاهر الموجودة في ميدان الآفاق والأنفس والثاني ذكر غايات العلم الناتج من هذا الميدان وهي التعرف على صفة من صفات الله أو فعل من أفعاله أو قدرة من قدراته .

وفائدة إرشاد الوحي وتوجيهه هنا أنه يوفر للعقل أمرين : الأول أنه يحفظه من التوجه الخاطىء إلى خيالات وموضوعات لا وجود لها في عالم الخلق كما حدث للعقل في فترات مختلفة حين وقع فريسة - الميتافيزيقا - والخرافة والأوهام والسحر فإرشاد الوحي يتوجه بالعقل إلى البحث في شيء موجود فعلاً لأن العقل لا يستطيع الوصول إلى معرفة في غير مادة موجودة. ولقد أدرك هذه الخاصة ابن تيمية حين قال :

إن العلم بالموجود وصفاته هو الأصل، وإن العلم بالعدم المطلق والمقيد تبع له وفرع عليه. وأيضاً فالعلم بالعدم.

لا فائدة للعالم به الالتمام العلم بالموجود. وتمام الموجود في نفسه، إذ تصور «لا شيء» لا يستفيد به العالم (۱) . والفائدة الثانية هي أن إرشاد الوحي يحفظ العقل - يقظاً - إلى الهدف من البحث والمعرفة وهو معرفة الله وعبادته لا التجبر والعلو في الأرض، ويظل يقظاً إلى أن مصدر المعرفة هو الله فلا يدعيها الإنسان ويتلبس العجرفة والعجب والطغيان .

يطلب الوحي إلى الدارس أن يدخل «مختبر آيات الأفاق والأنفس ثم يستعمل قواه العقلية والسمعية والحسية التي أشار إليها القرآن باسم السمع والبصر والفؤاد لدراسة الموضوع الذي أرشد الوحي إليه ووجه إلى ميدانه ثم يقارن النتائج التي توصل إليها في - مختبر الآفاق والأنفس - بالمعلومات التي تلاها الوحي فإذا أحس الدارس تطبيق هذا المنهج في المعرفة برهنت النتائج الحسية المخبرية التي توصل البحث إليها صدق المعلومات التي جاء بها خبر الوحي»، فحصل الاطمئنان ورسخ الإيمان. وهذا التكامل بين آيات الوحي وآيات الكون والأنفس صفة أصيلة في منهج المعرفة الإسلامية. وأول من قام بهذه

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(۱) ابن تيمية الفتاوى الأسماء والصفات، ج ٦ ، ص ٦٦ - ٦٧ .

التجارب الكونية هم الأنبياء والرسل. فهذا إبراهيم عليه السلام يطلب من الله تجربة عملية تريه كيف يحيى الله الموتى فيسأله الله ( أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)فيجيبة الله إلى طلبه ويأمره بأن يذبح ثلاثة من الطير ويقسمها إلى أقسام في أماكن متباعدة ليرى بعد ذلك كيف تتلاحم الأقسام وتدب بها الحياة. ولقد كشف الله للباحثين في الطب فيجيبه الحديث كيف تتلاحم الخلايا وتنمو وتدب بها الحياة .

وهذا «عزير» يتحقق من ظاهرة الخلق والموت والبعث بتجربة بيولوجية عملية مادتها هو نفسه وحماره الذي يركبه .

وهذا موسی عليه السلام يطلب أن ينظر إلى الله جهرة فيمرره الله بتجربة كونية مادتها الجبل الذي تهدم من خشية الله .

وحين طلبت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة مادية جاءها الأمر بالتوجه إلى مختبر الكون لشهود هذه :المعجزات إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. وإذا كان الجيل الأول من قريش لم يحسن هذا التوجه فإن الأجيال المسلمة ـ بعد ذلك ـ توجهت إلى مختبر الكون وفتحت الباب الذي سارت عليه أوربا بعد ذلك دون أن تقتبس معه الأهداف والغايات.

ولا بد للباحث أو الدارس أن يستمر في بحثه ودراسته حتى يحقق أمرين :

الأول، الرسوخ في العلم أي التعمق الوافي في دراسة الموضوع والتمكن من فهم مكوناته وأحواله. ولقد أشاد الله سبحانه وتعالى بالراسخين في العلم لأنهم يصلون إلى الإيمان الراسخ :

والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . (سورة آل عمران : الآية (٧).

- لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. (سورة النساء: الآية ١٦٢).

وفي المقابل قلل من السطحية في العلم التي تقف بصاحبها عند ظواهر المعرفة :

. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . (سورة الروم : الآية ٧)

والأمر الثاني، هو الإحاطة الشاملة بموضوع العلم والحذر من العلم الجزئي والمعرفة الجزئية لأن هذه الجزئية تقودإلى التكذيب بخبر المعرفة وتؤدي إلى الخطأ في الاستنتاج

والحكم :

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ) (سورة يونسالآية (٣٩).

- (وقال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً). (سورة النمل: الآية ٨٤ ). :

إن عدم الانتباه إلى هذين الشرطين: الرسوخ في العلم، والإحاطة الشاملة بموضوع العلم، جعل البعض يعتقد بتنافر الدين والعلم. ونتيجة لذلك دعا بعض الكتاب الإسلاميين إلى عدم المقارنة بين مقررات الدين وثمرات العلم لأن حقائق الدين ثابتة ومقررات العلم متغيرة .

والواقع أن العلم الكامل لا يتغير وإنما الذي يتغير هو(العلم الجزئي) الذي فيه نقص أو يخالطه ظن أو هوى، فيكون فيه (ما يظن أنه علم )وليس بعلم. فالقول بكروية الأرض أصبح علماً كاملاً لا خوف من تعديله أو تغييره بعد الصعود إلى القمر والدوران في الفضاء، ولكن عندما كان يقال إن الذرة غير قابلة للانقسام كان ظناً وليس علماً. لذلك لا تناقض أبداً بين الدين الصحيح والعلم الصحيح، وإنما التناقض حين يتطرق الخطأ إلى الدين أو العلم. وإلى يقع هذا أشار القرآن :

(وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً) . (سورة النجم : الآية (۲۸).

**آثار الانشقاق بين أدوات المعرفة ونقد العلماء الغربيين لمنهج المعرفة المعاصر :**

في الفترات التاريخية التي تكامل خلالها الوحي والعقل والحس في ميدان المعرفة برزت آثار هذا التكامل في حياة الإنسان وفي ثمار المعرفة حيث شاع الاستقرار وشيـدت الحضارات. ولكن الفترات التي شاهدت الانشقاق بين أدوات المعرفة انحرفت الحضارة عن مسارها الطبيعي وتداعت سلبيات العلم المجرد من الإيمان فشقي الإنسان بالعلم وانتهت الحضارة إلى السقوط. ونحن نقدم لذلك مثلين اثنين الأول من الحضارة الإسلامية والثاني من الحضارة الغربية المعاصرة .

أما عن المثل الأول فلقد سبق عصور الضعف والانحلال في الحضارة الإسلامية انشقاق في أدوات المعرفة وميادينها، حيث تقوقع الفقهاء في دراسة ما أورثه الآباء وترديد ما أفرزه فهم هؤلاء الآباء ونظرهم في «خبر الوحي»، وتوقفوا عن النظر في آيات الكتاب نفسها. كذلك عارضوا النظر في آيات الآفاق والأنفس وعطلوا أداة العقل في ميدان العلم مبالغة في محاربة اتجاهات الزندقة. كذلك جزء وا ميدان الفقه نفسه إلى مذهبيات وفرق وأحزاب وقطعوا الصلات القائمة بين هذه الميادين. ونتيجة لذلك كله وقعوا في أخطاء.

كثيرة وخرجوا بمفاهيم أظهرت الوحي والعقل بمظهر المتناقضين . كذلك اخترع المتكلمون لأنفسهم منهجاً ـ عقلياً ـ لا يتكامل مع الوحي ولا يستعين بالحس فافتقروا بذلك إلى إرشاد الوحي وتجربة الحواس العملية .

. وأما الفلاسفة فقد وضعوا العقل في مواجهة الوحي وبذلك حرموا العقل من بصائر الوحي» وجعلوه يتوجه إلى أوهام اليونان التي خرجت به إلى دائرة الوهم والخرافة(١).

ولقد نجم عن ذلك الانشقاق في منهج المعرفة ضعف الحضارة الإسلامية وما جره هذا الضعف من مشكلات اجتماعية واقتصادية في الداخل وهزائم وانهيارات أمام غزاة التتار والصليبيين والمغول من خارج، واستمر هذا الضعف حتى انهيار الحضارة الإسلامية في مطلع العصر الحديث.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

دكتور ماجد عرسان الكيلاني تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية . ٢٦١

وأما عن المثل الثاني فإن أصوات المختصين في الحضارة الغربية المعاصرة ترتفع - الآن - محذرة من الآثار السلبية التي أحدثها الإنشقاق بين أدوات المعرفة المذكورة.

ومن الأصوات القوية التي نددت بمنهاج المعرفة المعاصر أبراهام ماسلو - (Abraham Maslow) رئيس جمعيات علماء النفس في الولايات المتحدة في السبعينات والذي وصفته المجلات المتخصصة بأنه حل محل دارون وفرويد وسكنر في التأثير على العقل الغربي عامة ومن أقواله في هذا المجال :

لا بد من طريقة جديدة للمعرفة، ولا بد من معنى أوسع للعلم فإن ملحد القرن التاسع عشر قد حرق البيت بدل أن يعيد ترميمة رمى بجميع الأسئلة التي يطرحها الدين وبإجاباتها معاً وأدار ظهره لكل مقررات الدين لأن القائمين على الدين قد طلعوا عليه بإجابات لا يستطيع قبولها يحترم نفسه .

ولكن اليوم وقد أصبح العالم أكثر معرفة واستنارة فإنه وإن كان لا يستطيع قبول الإجابات الدينية، فقد أصبح واضحاً لديه أن موضوعات البحث الدينية ومباحث الدين والأسئلة التي يطرحها الدين حول النشأة والوجود والمصير هي قضايا علمية تستحق الاحترام الكامل، وهي قضايا عميقة.

الجذور في الطبيعة البشرية ويمكن دراستها وتمحيصها بأسلوب علمي ،رصين وإن الكنيسة كانت تحاول الإجابة عن أسئلة إنسانية رفيعة صحيحة، وهي وإن أخطأت الإجابة فإن الأسئلة نفسها كانت تستحق القبول الكامل والتبرير الكامل.

ومن المسلم به - الآن - أن علماء النفس الطبيعيين والإنسانيين سوف يعتبرون كل شخص لا يهتم بالدين وموضوعاته وقضاياه إنما هو إنسان شاذ مريض (١) .

و ممن ناقش آثار الانشقاق بين أدوات المعرفة البروفسور س . د. هاردي الذي ذكر أن اقتصار مناهج المعرفة على ميدان المحسوس هو تصور ساذج وغير عملي ويضرب لذلك مثلاً فيقول لو أن إنساناً قصر المعرفة على ما يحسه ويراه لما كان بالإمكان معرفة قارة افريقيا من خلال ما كتبه الذين رأوها وإنما لا بد لكل من أراد أن يعرفها أن يسافر إليها ويرى فيها كل شيء وهذا أمر صعب التحقيق باهض التكاليف.

ويضيف - هاردي - أن قصر المعرفة على الحس وحده أن اللغة هي سوف يخرج منها علوماً كالرياضيات واللغة مع أن اللغة هي.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1. أبراهام ماسلو خطر الانشقاق بين الدين والعلم. ترجمة د. ماجد عرسان الكيلاني، مجلة الأمة، قطر، ربيع الأول ١٤٠١ ، ص ١٩. ٢٦٣

التي تحمل الأفكار التي تعجز عن حملها الخبرات التي تقتصر على الحواس (۱).

ونضيف إلى ما قاله - هاردي - إن قصر المعرفة على ما يحسه الإنسان ويراه يستدعي التنكر لكل ما يحمله التاريخ لنا عن الماضي، ولكل ما تنقله الكتابة من تراث الماضي، وأننا لو أردنا أن نتحقق من ذلك لوجب علينا استرجاع الماضي بوقائعه وزمانه وهذا أمر مستحيل التحقيق والقول به يعيد الإنسان إلى طور البدائية الأولى.

وناقش آخرون مشکلات مناهج المعرفة المعاصرة فاستعرضوا تاريخ المعرفة وذكروا أن مناهج المعرفة» تتغير حسب حاجات الإنسان ثم خلصوا إلى القول أن مناهج المعرفة القائمة في الوقت الحاضر لم تعد ملائمة لمجتمعات ما بعد العصر الصناعي لأن فروض المعرفة كانت ـ في العصر الصناعي - تقوم على اعتبار العقل أرقى أدوات المعرفة وأن الملاحظة والتجربة هي الأدوات الصادقة الوحيدة في ميدان المعرفة. وكان الاعتقاد أن الإنسان سوف يكتشف بواسطة العقل قوانين الحياة والخلق ،والكون وسوف يتحرر من قيود الجهل وينتقل إلى مستقبل أفضل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

Harry Schofield. The Philosophy of Education. (London: George (1) Allen & Unwin. 1982) PP. 61-63. ٢٦٤

ولكن ما إن حلت الستينات والسبعينات من هذا القرن بدأ الشك بصحة هذه التطلعات. وظهر القول إن اقتصار المعرفة على العقل وميدان العلم الطبيعي أدى إلى ظهور الإنسان ذي البعد الواحد وإن الاعتماد على المفاهيم التكنولوجية والعلمية وحدها أوجد كرة أرضية قاحلة وإن الحاجة ماسة لإيجاد منهج معرفة متوازن وشامل وجديد. كذلك تكررت الإشارات والكتابات حول أهمية أساليب المعرفة الروحية والخبرات الذاتية، وإن المعرفة أوسع مما حددتها مناهج المعرفة التكنولوجية وإنها يجب أن تتسع لتشمل القيم والدين والخبرات الذاتية .

من هذا الاستعراض لمشكلات مناهج المعرفة المعاصرة نتبين أن الحاجة ماسة إلى منهج المعرفة الإسلامي بشموله وعمقه .

ولكن من الإنصاف والصدق مع النفس أن نقول إن المسلم المعاصر لا يمارس منهج المعرفة الإسلامي ولا هو مؤهل لبعثه. وكذلك البيئة المعاصرة في العالم الإسلامي بيئة غير صالحة لبلورة هذا المنهج ووضعه موضع التطبيق وإحالة العلوم المتولدة منه إلى تطبيقات زاخرة بما يتطلبه العصر ويحتاجه أبناء العصر وتحديات العصر.

فالمسلم المعاصر يعيش أزمة فكرية ونفسية تحول بينه وبين هذا الدور الفعال المطلوب. وتتخذ أزمة المسلم المعاصر في هذا الميدان مظاهر عدة هي :

الأول؛ أنه حين يتصدى للبحث والمعرفة يكتفي بأن يتباهى بأسفار التراث الإسلامي المكدسة في خزائن العالم . وهو يفاخر الآخرين بأن هذه كلها انبثقت على أيد أسلافه الذين قادوا الحضارة العالمية آنذاك، ثم يود ـ بناء على ذلك - أن يعترف له الآخرون بالفضل، وأن يؤدوا له حق النسب، وأن يسبغوا عليه حلل الاحترام وهالات التبجيل .

إن الأزمة التي يعاني منها المسلم المعاصر في هذا المجال أنه يخلط بين أمرين هامين ويكتفي بأحدهما دون الآخر. وهذان الأمران هما : الرسالة والتراث .

هي فالرسالة هي عطاء الجيل الحاضر الذي يسهم به في مسيرة الحضارة العالمية الحاضرة لحل مشكلات الحاضر وتلبية تطلعات المستقبل .

أما - التراث - فهو إسهامات «الآباء» في الحضارة العالمية التي عاصروها وعطاؤهم الذي قدموه للبشرية خلال العصور التي عاشوها .

وقيام ـ الآباء - بدورهم في الماضي لا يعفي الأبناء الذين يعيشون في الحاضر عن القيام بدورهم في حمل الرسالة والإسهام في مسيرة الحضارة العالمية الحاضرة :

وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ) . (سورة البقرة : الآية ١٣٤ ،١٤١) .

والمسلم المعاصر لا يقوم بواجبه في حمل «الرسالة» وهو لا يجهد عقله ونفسه في بلورة مضامينها وما يجب أن تكون عليه لتلبية حاجاته هو نفسه وللإسهام في حاجات الآخرين، لتقديم ما تحتاجه الرسالة من تضحية بالمال والنفس. ولذلك فهو لا يسهم في الفكر الإنساني المعاصر والحضارة الإنسانية المعاصرة وإنما هو «آبائي» يكتفي بالتباهي بتراث الآباء فيكتب بتمجيده الكتب والمقالات ويحشو به أذهان الناشئة وينظم بمدحه القصائد والأناشيد والأغاني، ويقيم له المعارض ويجذب له عشاق الآثار. ثم يعيش بعد ذلك طفيلياً على إسهامات الآخرين ومنتوجاتهم.

والمظهر الثاني لأزمة المسلم المعاصر أنه إذا رأى الآخرين وهم يضعون مناهج المعرفة موضع التطبيق ويقطفون ثمارها الإيجابية ويتداعون لمعالجة نقائصها السلبية فإنه لا يتحرك للإسهام في الإبقاء على ثمرات الإيجابيات ومعالجة السلبيات بطريقة توفر له الاحترام وإنما يتشنج وينفعل ويحقر أعمال الآخرين ويتصيد الأخطاء ويشهر بالسلبيات ويقارن بينها وبين الإيجابيات في تراث الآباء.

والمظهر الثالث لأزمة المسلم المعاصر أنه لا يريد أن يعترف بأزمته ولا يود تشخيصها وتمحيصها كمقدمة لعلاجها . فهو يرفض «النقد الذاتي» ويعتبره شتماً وتحقيراً وتتبعاً للعورات. وحين تتفاقم مشكلاته وآثار أزمته فإنه يحمل نتائج هذه الآثار والمضاعفات للذين جذبتهم روائح ضعفه وجاءوا ليستثمروا أزمته - كالاستعمار والشيوعية والصهيونية - فهو يعكس القاعدة الإسلامية التي تقرر أن ما يصيب القوم هو ثمار ما كسبت أيديهم وأن ما بهم من حال أسيفة هو ثمرة ما جاء بنفسهم من أفكار وقيم خاطئة . فهو ـ حسب تعبير القرآن - يرفض التوبة ويحمل الآخرين نتائج إصراره على الذنب .

وجميع هذه المظاهر التي يعاني منها المسلم المعاصر تستدعي التركيز على البحث في أسباب أزمته وعلاجها في ميدان التربية - والتربية بالذات .

وليس من المبالغة أن نقول إن منهاج المعرفة الإسلامي يحتاج أن يسبقه إفراز جيل جديد من العلماء الذين يجري انتقاء خاماتهم من أذكياء الطلبة الموهوبين ـ أو من أولي الألباب حسب التعبير القرآني .. فأمثال هؤلاء الموهوبين هم القادرون على الاستفادة من منهج المعرفة الإسلامي وتطويره بما يلائم حاجات العصر وتحدياته ثم تطبيقه وقطف ثمراته .

٤ - فريق المعرفة : الرسل والعلماء :

يتكامل في ميدان المعرفة فريقان : الفريق الأول هم الرسل. والثاني هم العلماء .

وأما عن دور الرسل في المعرفة فهو أنهم يتلقون الوحي الخالق مباشرة. والمحور الذي تدور حوله موضوعات الوحي هو نماذج العلاقات الملائمة للطور الذي يأتي الرسول لينقل إليه المجموعة البشرية التي أرسل إليها. وتسمى هذه النماذج المثل الأعلى .

وليس لدينا منهج واضح مفصل عما جاء به فريق الرسل إلا منهج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي تلقاه عن الخالق سبحانه وتعالى بغية دفع عجلة التطور التي قادها الرسل ابتداء من مرحلة الرسالة الأسرية – أي رسالة آدم - ومروراً بالرسالات القروية – كرسالات صالح وعاد ـ ثم الرسالات القومية - كرسالة موسى - حتى انتهت . بالرسالة العالمية التي حمل لواءها محمد صلى الله عليه وسلم .

و المثل الأعلى الذي جاء به هو الصيغة الجديدة لنماذج العلاقات بين الخالق والإنسان والكون والحياة والآخرة في طور العالمية الذي جاءت رسالة الإسلام لتهيء الإنسانية لعبور هذا الطور.

وفي هذا الطور الأخير نلمح شارات انتهاء الطفولة العقلية للإنسان وتأهيله لحمل أعباء مرحلة النضج العقلي الذي يمكنه من شهود أفعال الخالق وصفاته. وختم الرسالة بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن الإشارة إلى هذه المهمة التي ألقيت على عاتق الإنسان .

وأما عن دور الفريق الثاني ـ وهم العلماء ـ فهو القيام بأمرين اثنين :

الأول : إبراز الشواهد الحسية التي تفرز الاطمئنان لصدق خبر الوحي من خلال النظر والمقارنة بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس.

والثاني : إعمال العقل والاجتهاد في - آيات الكتاب - و آيات الآفاق والأنفس - لابتكار الوسائل والأدوات التي تساعد على تجسيد المثل الأعلى وإشاعته وترجمته إلى واقع حياة وإلى ممارسات ونظم وحضارة.

ه ــ أقسام فريق العلماء : لا يتوجه القرآن إلى علماء مختصين بالعلوم الدينية فحسب وإنما يتوجه توجهاً شاملاً إلى كافة أصناف العلماء، ويمكن أن نقسم فريق العلماء - حسب التصور الإسلامي - إلى ثلاثة أقسام هم العالم الديني، والعالم الطبيعي، والعالم الاجتماعي.

فالعالم الديني يبلور( المظهر الديني) للعبادة وتطبيقاته.أي هو يقوم بفقه آيات الكتاب والسنة لبلورة علاقات الإنسان بالله - علاقة العبودية وعلاقة الإنسان بالآخرة - علاقة مسؤولية وجزاء. ويتفرع عن ذلك تخصصات كثيرة في شؤون العقيدة والعبادة.

والعالم الطبيعي يبلور «المظهر الكوني» للعبادة. أي هو يقوم بفقه آيات الله في الآفاق لبلورة علاقة الإنسان بالكون - علاقة تسخير ويتفرع عن ذلك تخصصات كثيرة لها في مختلف المكونات الطبيعية والكائنات الحية في لا حصر آفاق الكون من السموات والأرض وما بينهما.

والعالم الاجتماعي يبلور المظهر الاجتماعي للعبادة، أي هو يقوم بفقه آيات الكتاب والسنة النبوية لبلورة علاقة الإنسان بالإنسان - علاقة العدل والإحسان، ولبلورة علاقة الإنسان بالحياة - علاقة الابتلاء. ويتفرع عن ذلك تخصصات لا حصر لها في شؤون التشريع والاجتماع والتربية وغير ذلك .

ويلحق بهذا الميدان عدد آخر من التخصصات منها : علم النفس الذي يقوم بفقه آيات الله في الأنفس، ويتفرع. ذلك تخصصات في النفس الإنسانية والسلوك الإنساني، عن هذه النفس أفراداً وجماعات. وتاريخ ويلحق بالميادين السابقة كلها - العالم الجمالي - الذي

يبلور الجانب الجمالي في الميادين السابقة كلها وفي الوجودالقائم. و نقول هو يفقه جمال النعم الإلهية في العبادة والاجتماع والكون ويتفرع عن ذلك تخصصات لا - في الأدب والفن وعلم الأخلاق والأذواق.

حصر ھافكل من الأطراف السابقة فقيه يختص بفقه جانب من الوجود القائم. وإليهم مجتمعين وردت الإشارات القرانية بـ (أولي الألباب) الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وما يعتريهما من أحوال ثم تكون نتيجة هذا التفكر والبحث إعلان الغاية والهدف (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ) ! وحين تبرز هذه الجوانب المعرفية وتشيع في حياة الناس تتكون الثقافة الإسلامية بمعناها الشامل الكامل الذي يطبع الحياة الإسلامية ويميزها عما سواها في ميادين الفكر والقيم والعادات والتقاليد وأنماط السلوك والفن واللباس والبناء، والنظم والعلاقات وتتجسد عقيدة التوحيد في ذلك كله وتعطي الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية طابعها الخاص الذي تتميز كلها به .

٦ ـ التكامل بين فرقاء المعرفة :

التكامل بين فريقي المعرفة من الرسل والعلماء أمر ضروري وضمان لاستمرار مسيرة الحياة واستقامتها وسموها وسلامتها. والانشقاق بينهما نذير تعثر في هذه المسيرة.

وانحرافها وحدوث الأزمات المهلكة والكوارث المدمرة. ولهذا التكامل مظهران :

الأول : تكامل الرسل والعلماء، والثاني: تكامل أطراف العلماء أنفسهم.

يضمن أما عن الأول - تكامل الرسل والعلماء ـ فهو الذي للعلماء التزامهم بـ «المثل الأعلى» الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم للطور الجديد من الحياة. ويضمن توجيه الإنجازات العلمية لخدمة هذا ـ المثل الأعلى . أما جميع حين يختل التكامل ويقع الانشقاق بين الرسل والعلماء، فإن البصائر التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم تنطفىء من طريق العلماء وينحرفون وراء «مثل سوء» لا تناسب الطور العالمي الذي نعيشه فيه، ولا تنفع الإنسانية ولا تجلب السعادة والأمن.

فنحن نرى أن انشقاق العـالم الطبيعي والعـالم الاجتماعي عن «بصائر»، المثل الأعلى الإسلامي قد دفع بهما إلى «مثل سوء» تجسدت في «الوطنيات» أو «المذهبية أو «الطبقية» أو «الطائفية» أو «العرقية» أو «ثقافة الاستهلاك والمتعة وحصر نشاطها العلمي في هذه الميادين.

ونحن نرى أن - الأديب الجمالي - في فترات الانقطاع عن بصائر الوحي يتوهم - مثله الأعلى ــ في امرأة، أو مجلس.

شراب، أو منصب ،وجاه، وينتقل من التسبيح في جمال الإبداع الإلهي في الكون والإنسان والحياة إلى زخرف الأشياء والأشخاص وإلى هذا يشير القرآن الكريم عند حديثه عن الشعراء الذين يتبعهم الغاوون، ويهيمون في أودية. المتعرجة والمشاعر والصور المضطربة ويستثني من هؤلاء الذين يؤمنون بـ (المثل الأعلى) ويلتزمون بتوجيهاته في الإكثار من ذكر جمال الخلق الإلهي .

المعاني ونحن نرى كذلك أن عدم اهتداء (عالم النفس المعاصر) بنموذج - المثل الأعلى - الذي طرحه الوحي القرآني عن الإنسان، أبقى هذا العالم حبيس ميدان المرحلة البدائية في تطور النفس الإنسانية، أو المرحلة التي يشير إليها القرآن الكريم باسم - النفس الأمارة بالسوء . ومن هذا الميدان استخرج عالم النفس الحديث - من أمثال فرويد - جميع -- مقرراته واستنتاجاته عن النفس البشرية ودوافعها. وهو لما يهتد بعد إلى مراتب النفس العليا التي يشير القرآن إليها باسم - النفس اللوامة - و - النفس المطمئنة .

ونحن نرى أيضاً أن من انقطعوا من (علماء الدين) عن الاتصال المباشر بالقرآن والسنة وتحولوا إلى التقليد المذهبي فإنهم إما خرجوا من ميدان الحياة المتحركة وتحولوا إلى قصاص لأخبار الصالحين من الأموات وبذلك توقفوا عن رسالة الدين الأساسية في مجامهة الشرور اليومية وتقويم انحرافات.

الأحياء، وإما أنهم تحولوا إلى مبررين لانحرافات المترفين من الطبقات العليا .

وهذا كله عودة إلى (مثل) غير عليا كانت في أطوار الطفولة البشرية التي مرت عنها الإنسانية وانتهى دورها وكان من نتيجة ذلك اضطراب في مسيرة العقيدة والفكر والعلم والتربية والأدب والاجتماع والفن والثقافة .

والمظهر الثاني للتكامل بين فرقاء المعرفة هو التكامل بين أطراف الفريق الثاني؛ أي بين كل من العالم الديني، والعالم الطبيعي والعالم الاجتماعي. فهذا التكامل ضروري لسببين :

السبب الأول؛ أنهم مجتمعين يسهمون في تنمية الإيمان بالمثل الأعلى وتحويله إلى تطبيقات عملية. ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن المؤمنين هم الذين يعلمون الحق:

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم . (سورة البقرة: الآية (٢٦).

ولقد عرف محمد إقبال - الإيمان - بقوله : «الإيمان أكثر من مجرد شعور فهو في حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة» (۱).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(۱) محمد إقبال تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود ص ٦

والرضى محله الشعور ،والإرادة والعلم والمعرفة محلهما العقل. والحديث النبوي يذكر أن الإيمان قول وعمل. والقول هنا تعبير عن القناعة والشعور. فإذا جمعنا هذه التعاريف توصلنا إلى المعادلة التالية :

الإيمان = علم ومعرفة + رضى +عمل

أي هو = عقل + إرادة + تطبيق ..

وهذه المكونات للإيمان هي وظائف كل من العالم الديني، والعالم الطبيعي، والعالم الاجتماعي، والعالم الجمالي. والانفصال بين هؤلاء معناه تفكك معادلة الإيمان وعدم انعقاد الإيمان نفسه. فحين ينفصل العالم الجمالي عن العالم الديني وعن العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي ويهيم دون بصائر تضيء له الطريق ـ في أودية الشعور والإرادة وبلا أفكار صائبة ولا قناعات تستثمر الإرادة المتدفقة وتوظفها لخدمة (المثل الأعلى )فإن الأمر ينتهي بالمتعلمين إلى أمرين: إما التهور والانفلات وهو التطرف، وإما اليأس والانزواء وهو الجمود . والعالم المفكر حين يحسن الإمداد بالأفكار والمعارف دون أن تحركها الإرادة النبيلة فسوف تبقى الأفكار والمعارف ترفاً فكرياً لا يحرك إلى عمل ولا يقود إلى تطبيق .

والعالم الطبيعي حين يحسن اكتشاف قوانين الكون وتسخيرها أي تحويلها إلى مخترعات وتطبيقات فإنه يزود المتعلمين بمهارات وأدوات دون أن تكون لديهم أفكار صائبة أو «مثل أعلى أو إرادات نبيلة يستعملون المخترعات والتطبيقات الجديدة في خدمتها. ولذلك ينتهي الأمر بالمستخدمين لهذه المخترعات إلى أمرين: الأول استعمالها في خدمة الأهواء والنزوات والشهوات الفردية والطبقية والعرقية وهو التطرف. وأما مقت هذه التطبيقات والمخترعات كما عبرت عن ذلك اتجاهات وثقافات معاصرة، وكما عبر عن ذلك تقرير المستشارين المقدم إلى اليونسكو عام ١٩٧٦ فقد جاء فيه :

«لقد خضعت تطبيقات العلم إلى حد بعيد لحافز الربح ومصلحة قطاعات صغيرة في المجتمع البشري. وفي ثنايا هذه العملية تسربت صور الانحراف والتشويه إلى أوليات العلم نفسه، وخلق الشعور بالإحباط وخيبة العلم والمطالبة بكبح العلم وترويض التكنولوجيا بصفة عامة . والحق أن العلم يمثل أحد المظاهر الإبداعية العظمى لعبقرية الإنسان، لكن المشكلة تكمن في انفصاله عن الاتجاه الإنساني والقيم الأساسية لحياة البشر. وهذا يستدعي تحديد مفهوم جديد للعلم يوفر تناسق التقدم في مجال العلوم الطبيعية والعلوم

الاجتماعية سواء» (۱) .

والأمر الثاني هو استعمال المخترعات والتطبيقات العلمية في خدمة الأهواء السياسية والنزوات العنصرية والشهوات الطبقية والفردية وهو التطرف. (ولقد عبر عن ) تقرير المستشارين المذكور أعلاه إذ جاء فيه :

ذلك التكنولوجيا سلاح ذو حدين، فقد حققت للإنسان مزايا هائلة من ناحية وأدت إلى تراكم أجهزة الدمار من ناحية أخرى؛ وزادت من حدة مظاهر عدم المساواة في العالم، وأدت إلى نشوء أوضاع بالغة الخطر في سوء التكيف والاضطراب. وأدت كذلك إلى تبديد موارد الأرض وإشاعة التلوث فيها» (٢) .

ويستمر التقرير في عرض آثار انفصال العلم الطبيعي عن بقية العلوم الأخرى فيقول :

إن رسوخ التكنولوجيا في بعض المجتمعات حرم الأفراد والجماعات من إمكانية التأثير في ظروف حياتهم وعلى مصيرهم. وبذلك صار الإنسان يعاني من التدخلات التي .

اقتحمت حياته الخاصة وصارت مشكلته تتركز في إقامة علاقات مفهومة وخلافه بين نفسه وجماعته وبيئته» (۱) .

والسبب الثاني لضرورة تكامل كل من العالم الديني والعالم الطبيعي والعالم الاجتماعي والعالم الجمالي هو أن التوحيد في العبادة والفكر والسلوك والاجتماع وسيلته التوحيد في أدوات المعرفة وفرقاء المعرفة .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

1. اليونسكو، نحو عالم الغد: تقرير المستشارين بشأن المشكلات العالمية الكبرى (باريس) (١٩٧٦، ص ١١٤

(۲) اليونسكو، نحو عالم الغد، ص ۱۰۸ - ۱۰۹ .

(1) اليونسكو، نحو عالم الغد، ص ١١٠

أما رابعاً :

الحقيقة وأنواعها

وانطلاقاً مما سقناه عن المعرفة وأدواتها وفرقائها تقسم الحقائق إلى أقسام حسب مصدرها وحسب موضوعها.

عن مصدرها فهي تقسم إلى قسمين: «حقائق إلهية» و «حقائق بشرية» . والحقائق الإلهية حقائق مطلقة لأنها خارج الزمان والمكان، بينما الحقائق البشرية حقائق نسبية تتأثر بالزمان والمكان وتتحدد بحدودهما .

والحقائق الإلهية حقائق خالدة أبدية بينما الحقائق البشرية حادثة موقوتة .

والحقائق الإلهية حقائق كلية بينما الحقائق البشرية حقائق جزئية .

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الباقي من الكتب الإلهية الذي يحتوي على الحقائق الإلهية نقية صافية، بينما تنتشر الحقائق البشرية في مختلف ما أنتجه البشر من علوم ومعارف.

والمشكلة التي تعاني منها البشرية أنها قد ترفع أحياناً الحقائق البشرية إلى مستوى الحقائق الإلهية أو تهبط بالحقائق الإلهية إلى مستوى الحقائق البشرية . فمثلا في الحضارة الغربية المعاصرة هبط الباحثون وفرقاء المعرفة بالحقائق الإلهية إلى مستوى البشرية، وأدرجوا جميع الحقائق الإلهية والحقائق البشرية في قائمة النسبية والمتغيرة والموقوتة، وحدودها كلها بحدود الزمان والمكان. ولقد انعكس هذا الهبوط بالحقائق الإلهية على القيم والأخلاق والموازين فصارت جميعها أيضاً نسبية متغيرة . موقوتة تتحدد بحدود البيئات والأزمنة والأمكنة، وتوجهها المصالح المتلونة والشهوات المتغيرة.

. يقابل ذلك ما حدث في العصور الإسلامية المتأخرة حين ضرب الجمود والتخلف المجتمعات الإسلامية وحلت المذهبية المقلدة محل الفكر الاجتهادي. فقد رفع الناس الحقائق البشرية إلى مستوى الحقائق الإلهية وأعطوها - بوعي أو بدون وعي - صفة الدوام والإلزام. وقلبوا النسبي إلى مطلق، والجزئي إلى كلي والحادث الموقوت إلى أبدي خالد. وبالإجمال رفعوا فهم البشر للكتاب والسنة إلى مستوى الكتاب والسنّة فكان من ثمار ذلك المذهبية والتقليد والجمود . وهذه حالة ندد بها القرآن الكريم ونعتها بنعت (الآبائية) الذين حجتهم أنهم وجدوا آباءهم على طريقة في الحياة والفكر والأدب وهم على آثارهم مقتدون.

إن الخلط بين الحقائق الإلهية والحقائق البشرية يؤدي إلى اختلاط الأدوار وتهدم الحدود بين فرقاء المعرفة. ففي الحالة الأولى يتخذ العلماء - بالإضافة إلى اختصاصهم - اختصاص الرسل والأنبياء ولكن دون رسالة. وفي الوقت الذي يفرزون علوما في ميدان العلوم الكونية يفرزون ظنوناً وأوهاماً في ميدان العلوم الدينية والاجتماعية. ويكون نجاحهم في ميدان العلوم الكونية مضللاً أخطائهم في ميدان العلوم الدينية والاجتماعية. وبذلك يختلط العلم بالظن، والحق بالباطل والتقدم بالتخلف، فتشيع الحيرة ويدب الاضطراب .

أما في الحالة الثانية ـ أي في فترات الآبائية ـ التي يرفع الناس خلالها الحقائق البشرية إلى مستوى الحقائق الإلهية فيتعطل العقل ويتوقف الاجتهاد في الدين، والإبداع في الأدب، والكشف في العلم الطبيعي، وتصبح المفاهيم التي تفرزها العقول الآبائية قيوداً وأغلالاً، وتوقف هذه الإبداعات كلها كارثة لأن معناه أن الإنسان يتوقف عن التفاعل والتكيف مع الشؤون الجديدة التى يحدثها الله كل يوم كل يوم هو في شأن . وتوقف التطور معناه بداية موت المجتمع وانهيار الحضارة.

أما عن أقسام الحقائق حسب موضوعها فهي تقسم كذلك إلى قسمين: «حقائق دينية» وموضوعها الخالق وعلاقته بالخلق كله وطاعة الإنسان له في شؤون الاجتماع البشري.

عامة . و (حقائق كونية) وموضوعها الموجودات الكونية القائمة مثل حياة الإنسان ومماته ودوران الأرض، وطبائع الأفلاك، ونزول المطر، والصحة والمرض وخصائص المواد الصلبة والسوائل والغازات وغير ذلك .

ويشترك المؤمن والكافر في شهود «الحقيقة الكونية» لأنها متعلقة بالكون الذي سخره الله للإنسان وجعله ضمن دائرة قدراته واختصاصاته. بينما ينفرد المؤمن في شهود «الحقيقة الدينية» لأن ميدانها لم يدخل ضمن دائرة التسخير، وإنما يشهد الإنسان منها ما يخبر به الوحي وتوجه إليه الرسالة.

ويرتبط بهذه الخاصية للحقائق خاصية أخرى وهي أن التخيير - أي كون الإنسان مخيراً ـ قائم في الحقيقة الدينية، لأن بها تمتحن إرادة الإنسان بينها التسيير ـ أي كون المخلوق مسيراً ـ قائم في الحقيقة الكونية، فالإنسان يستطيع أن يختار بين أن يصلي أو لا يصلي وبين أن يزكي أو لا يزكي، ولكنه لا يستطيع أن يوقف الدورة الدموية في جسده، أو يتناول السم ثم يستمر في الحياة وهكذا . وبناء على هذه الخصائص للحقائق كلها فإن العلوم جميعها علوم إسلامية لأنها إما علوم جاء بها الوحي كالعلوم الدينية والاجتماعية وإما علوم وجه الوحي كلا من العقل والحواس للبحث فيها كالعلوم الكونية .

خامساً

التكامل بين العلوم الدينية والعلوم الكونية وأثره في نشوء الحضارات وانهيارها

تتكامل العلوم الدينية والعلوم الكونية سواء في غرس أصول الإيمان أو قيام الحضارات وهذا التكامل سببه وحدة مصدر المعرفة ووحدة أدواتها وفرقـائها. أما عن تفاصيل التكامل المذكور فهو كما يلي :

الدين هو الدعامة الرئيسية في نشوء جميع الحضارات وتقدم العلوم والأمم ذات الأديان السماوية هي التي شيدت الحضارات ورعتها في حين لم تشارك الأمم الوثنية في نشأة الحضارات وإن اقتبست ذلك وشاركت في نشاطاته .

أما كيف تتفاعل العلوم الدينية والعلوم الكونية لنشأة الحضارة فإن ذلك يتم حسب الخطوات التالية :

ا - تمد العلوم الدينية الأمة التي تعتنق الدين بـ «رسالة» تجتمع عليها وتسعى لتسخير العلوم الكونية لخدمة هذه الرسالة وتحقيق أهدافها .

۲ - يتعمق التفاعل بين «الرسالة» و «أدوات تحقيقها» أي بين العلوم الدينية والعلوم الكونية ـ ويقوى ويفرز ثمراته الحضارية بمقدار توافق الحقائق الدينية والحقائق العلمية .

٣- يستمر الاتجاه الإيجابي للحضارة ما دامت الحقائق الدينية الصحيحة تمد الرسالة وتوجه أهدافها وتحفظ المجتمع من مضاعفات الترف والطغيان والانغماس في ثمار الحضارة المادية

. ٤ - يتوقف التفاعل بين الدين والحضارة حين يظهر سوء فهم ديني عاجز عن مسايرة التطور وتوجيه الرسالة أهداف الحضارة وتقديم الحلول الصحيحة لمشكلاتها . وتقديم فتسير الحضارة دون أهداف ولا إرشاد حتى تنتهي إلى الانحلال والسقوط.

وحين نطبق هذا التصور على الحضارتين الإسلامية والأوروبية نتبين أن الأمر في الحضارة الإسلامية سار كما يلي :

1 - أمد الإسلام المجتمع الإسلامي الذي أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر الخلفاء في قيادته بـ «رسالة عالمية لها أهدافها العليا وراح المجتمع الإسلامي يتسلح بالعلوم الطبيعية لخدمتها

٢- خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى توافقت مقررات الرسالة مع تطبيقات العلم واستمر الإسلام يوجه الحضارة التي برزت وطبعها بطابعها الإسلامي المعروف .

٣ ـ منذ القرن الرابع الهجري بدأ المجتمع الإسلامي يتقاعس عن حمل الرسالة وينسى أهدافها وبدأ يبرز سوء فهم ديني فتت الأمة من داخل إلى مذاهب وفرق متنافرة متناحرة وهبط مستوى التفكير وضعف الاجتهاد وعجز الفكر الإسلامي عن مسايرة ظروف التطور ومواجهة مشكلات الحضارة القائمة وتوجيه مسيرة المجتمعات الإسلامية . فبدأت هذه المجتمعات تسخر العلم للترف والطغيان وراحت تنغمس في ثمار الحضارة المادية ومضاعفاتها السلبية .

٤ - ابتداء من القرن السادس الهجري بدأ الانشقاق بين العلوم الدينية والعلوم الكونية، وأخذ سوء الفهم الديني وسوء الفهم العلمي يتبادلان الخصومة والاتهام بالجمود والزندقة وظهر من يقول إن العلم علمان: علم ينفع وعلم لا ينفع. ثم قصروا العلم الذي ينفع على علوم المذهب، وأدرجوا العلوم الكونية في قائمة العلم الذي لا ينفع. فكان من نتيجة ذلك كله أن آل أمر المجتمع الإسلامي إلى الضعف وآل أمر الحضارة الإسلامية إلى الجمود.

ه - انعكس ضعف المجتمع الإسلامي وضعف الحضارة الإسلامية على مواقف الأمة الإسلامية من المشكلات الداخلية والتحديات الخارجية فلم تستطع معالجة الأولى ولا مواجهة الثانية ولا الصمود أمامها فآل أمر الأمة إلى الانحطاط والانهيار.

أما في الحضارة الغربية المعاصرة فقد سار الأمر كذلك كما يلي :

- 1 بدأت الحضارة الغربية المعاصرة بدوافع دينية حين اعتنق الجرمان المسيحية وأمدتهم برسالة وأهداف اجتمعوا عليها في مواجهة التحدي الإسلامي الذي طرق أبواب أوروبا من الأندلس وصقلية وغيرهما. فراحوا يتسلحون بالعلم لخدمة هذه الأهداف وأقاموا الجامعات في القرن الثاني عشر التي كانت كنسية في طابعها وإداراتها والتي عرفت باسم النهضة الكارولنجية ـ أو نهضة الجامعات - الأندلس وبلاد وأقبلوا بكل ما أوتوا على نهل موارد العلم . الشام وصقلية (١)

. - ۲ عبر ابتداء من القرن السابع عشر بدأت أصول الدين المسيحي تتنافر مع تطبيقات العلم، واشتد هذا التنافر

(۱) د. عبد الفتاح عاشور نشأة الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ص ١٩٦

في عصر التنوير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، فنفر العلم بعيداً وراح - تحت تأثير اضطهاد رجال - الكنيسة - يتنكر للدين ويهاجمه ويحرض الناس عليه .

٣- اشتدت حدة الصراع بين الدين والعلم حتى بلغت الحد الدموي بين الأفراد والجماعات والشعوب . وتنكرت جماعات كبيرة للدين جملة وتفصيلا، في حين انسلخت منه جماعات أخرى وحصرته داخل أسوار الكنائس .

٤- سار العلم في طريقه ـ وما زال يسير ـ دون أهداف أو إرشاد وانغمست المجتمعات الغربية في ثقافة الاستهلاك والمتع المادية، وأفرز - وما زال يفرز ـ أزمات داخلية كالمذاهب الملحدة والمادية والمفاسد الاجتماعية . وأزمات خارجية كالاستعمار وما تسبب ـ وما زال يتسبب ـ به من فتن عالمية وكوارث وتهديدات مستمرة الأمر الذي جعل الأصوات تنطلق منذرة بانتهاء دور الحضارة الغربية المعاصرة وتوقع انهيارها .